تحديد المفاهيم

من أهم ما يطلب فى الحوار بين طرفين مختلفين : تحديد « المفاهيم » ، التى يتنازعون حولها ، تحديدًا دقيقًا ، يكشف عن ماهيتها ومدلولها ، فلا تظل مائعة رجراجة ، يفسرها كل طرف بما يحلو له ، ولا يسلم له الطرف الآخر .

ومن فوائد هذا التحديد :

وضع الأشياء فى موضعها ، وعدم إضاعة الجهد والوقت والفكر فى إبطال شىء ، لا يقول به الخصم أساسًا ، وإنما هو من تفسيره الخاص لمفاهيمه ومصطلحاته . وقد تنفض المعركة نهائيًا ، إذا اتضح للفريقين أنهما غير متباينين .

وقد تكون المعركة أخف حرارة وحدّة ، إذا اتضح أنهما غير متباينين تباينًا شديدًا شاسعًا .

وقد يعرف من أول الأمر أن التناقض بين الطرفين جوهرى وأساسى ، وأن التقارب بينهما مستحيل ، لاختلاف المنطلقات والأهداف والمناهج والمسلّمات عند كل منهما . فلا فائدة من الحوار بين اثنين بينهما ما بين المشرق والمغرب ، وبقدر ما تقرب من أحدهما تبتعد عن الآخر .

وأول المفاهيم التى يجب توضيحها وتحديدها بدقة هنا : المفهومان الأساسيان فى الحوار : **الإسلام ... والعلمانية** .

ويأتى بعد ذلك مفاهيم ترد كثيرًا فى الحوار مثل : **الشريعة ، التطور** .

* * *

مفهوم « الإسلام »

أما مفهوم « الإسلام » ، الذى نؤمن به ، وندعو إليه ، ونرى أنه سبيل النجاة فى الدنيا والآخرة ، فهو الدين ، الذى أنزل الله به آخر كتبه « القرآن » ، وبعث به

خاتم رسله محمدًا (عليه الصلاة والسلام) من عقائد ، وعبادات ، وأخلاق ، وآداب ، ومعاملات ؛ إذا أحسن الناس فهمها والعمل بها ، زكا الفرد ، واستقرت الأسرة ، وتماسك المجتمع ، وصلحت الدولة ، واستقام أمر الحياة ، بقدر استقامتهم على أمر الله . وإذا أساءوا فهمه أو العمل به ، اختلت حياتهم الفردية والاجتماعية ، بقدر بعدهم عنه .

مصدر هذا الدين هو القرآن الكريم ، الذى تكفل الله بحفظه ، فبقى كما أنزله الله منذ أربعة عشر قرنًا ، لم تتغير فيه كلمة أو حرف . وما يبين هذا القرآن ، ويشرحه من صحيح سنة النبى ﷺ ، الذى كلفه الله ببيان القرآن ، بالقول ، والفعل ، والتقرير ، ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (١) .

أما آراء البشر وتصرفاتهم ، فلا تحسب على الإسلام ؛ لأنهم غير معصومين عن الخطأ أو الانحراف ؛ ولأن الإسلام دين الله وشرعه وهداه ، وليس هو قول فلان ، ولا تصرف علان من الناس .

وقد أجمع المسلمون على أن كل واحد يُؤخذ منه ويُرد عليه ، إلا النبى ﷺ ، ولا يستثنى من ذلك ، إلا ما أجمعت عليه الأمة ، ممثلة فى علمائها ومجتهديها ، لا يشذ منهم أحد ، لما ثبت أن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة .

وكذلك سنة الخلفاء الراشدين ، أى منهجهم فى فهم الإسلام وتطبيقه ، لما لهم من خصوصية القرب من العهد النبوى ، ووجود كبار الصحابة ، الذين لا يبخلون بنصيحة ، ولا يسكتون على باطل ، ولا يقرون منكرًا ، وقد جاء فى ذلك الحديث الصحيح : « عليكم بسنتى ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عَضوا عليها بالنواجذ » .

أما أخطاء المسلمين أو انحرافاتهم على مدار التاريخ ، فإثمها على أصحابها ، لا يتحمل الإسلام وزر شىء منها . وهى حجة للإسلام عليهم ، وليست حجة لهم على الإسلام .

---

(١) النحل : ٤٤ .

هذا هو الإسلام ، الذى ندعو إليه ، ونربى الناس عليه ، وننادى بضرورة العودة إليه ؛ عقيدة ، وعبادة ، وتربية ، وأخلاقًا ، وتشريعًا ، وتنفيذًا .

ندعو إليه : صافيًا بلا شوائب ، مستقيمًا بلا انحراف ، كاملاً بلا تجزئة ، خالصًا بلا شركة ، سالمًا من تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

ولكن دعاة العلمانية لا يستطيعون - علانية على الأقل - أن يعترضوا على هذا الإسلام المصفى ، فاخترعوا « إسلامًا » من عندهم ، يريدون أن يلزمونا به قسرًا وكرهًا .

أجل ، يريدون « إسلامًا » ، غير الذى جاء به كتاب الله ، ودعا إليه رسول الله ﷺ ، وطبقه الخلفاء الراشدون ، وشرحه الأئمة ، والفقهاء ، والمفسرون ، والمحدثون .

يريدون « إسلامًا » يحمّلونه أوزار التاريخ ، كما يصورونه هم ، أو تصوره لهم مصادر إلهامهم من المبشرين والمستشرقين .

استمع إلى متحدثهم الفيلسوف فؤاد زكريا يقول : « إن دعاة تطبيق الشريعة ، يرتكبون خطأ فادحًا ، حين يركزون جهودهم على الإسلام ، كما ورد فى الكتاب والسنة ، ويتجاهلون الإسلام ، كما تجسد فى التاريخ . أعنى : حين يكتفون بالإسلام كنصوص ، ويغفلون الإسلام كواقع » !!

هذه - والله - عبارته بحروفها من تقديم كتابه ص ١٠ . وإنى لفى غاية الدهشة أمام هذا الكلام العجيب !

هل يريدنا الكاتب الفيلسوف ، إذا دعونا الناس إلى الإسلام ، أن ندعوهم إلى طغيان الحجاج ، أو خمريات أبو نواس ، أو مجون بعض الملوك والسلاطين أو استبدادهم ، ونقول لهم : هذا هو الإسلام ؟!

إن الإسلام منهج الله لهداية البشر ، ألزمهم الله به ، ليعملوا بتعاليمه متعبدين ، ومتقربين إليه ، ليظفروا بسعادة الدارين . فكيف نلزم الناس بما لم يلزمهم الله به ؟! وكيف ندعوهم إلى الإسلام فى صور الانحراف عن الإسلام ؟! وكيف يوضع منهج إبليس فى الغواية ، موضع منهج الله فى الهداية ؟!

هذا وضع مقلوب يا أستاذ الفلسفة .

سيقول العِلمانيون : إنكم بهذا تدعون إلى الإِسلام المثالى ، الذى يصعب تحقيقه .

ونقول :

أولاً : إن هذا هو الإِسلام ، الذى شرعه الله للناس ، ولا خيار لنا فيه .

وثانيًا : إن كل من يدعو إلى مذهب أو نظام أو أيديولوجية ، يدعو إليه فى صورته المثالية . وعلى الناس أن يبذلوا جهدهم ليقتربوا من هذه الصورة المثالية ، ما استطاعوا ، وعلى أجهزة التشريع والتوجيه أن تساعدهم على هذا الاقتراب والترقى . وسينجح فى ذلك قوم ، ويرسب آخرون ، ولا حرج . فمن سار على الدرب وصل .

وليس من العقل ولا الحكمة ولا المصلحة ، أن يعرض على الناس الصور الرديئة ، والمظلمة فى التطبيق ، من أول الأمر ، فهذه تصيبهم بالإِحباط واليأس . وهذا ما يفعله دعاة الديمقراطية ، والاشتراكية ، وغيرهما . يدعون إليها فى صورتها المثالية ، بعيدًا عن أخطاء التطبيق ، وانحرافات المطبقين . وسيأتى مزيد بيان لهذا فى مناسبته ، فيما بعد ، وسننقل من كلام د . زكريا ، ما يرد على د . زكريا .

ويقول علمانيون آخرون :

سلمنا معكم بأن الإِسلام ليس هو التاريخ ولا الواقع التطبيقى ، بل هو الإِسلام المثالى ، كما تصوره النصوص .

ولكن هذا الإِسلام نفسه ، غير متفق على صورة له . فصورته عند التقليديين المحافظين ، غير صورته عند المجددين المجتهدين ، غير صورته عند فصائل الصحوة الإِسلامية المعاصرة ؛ وفصائل الصحوة الإِسلامية ، ليست تيارًا واحدًا ، بل هى تيارات مختلفة أشد الاختلاف من الإِخوان المسلمين إلى جماعة التكفير والهجرة .

هناك تيارات تتبنى أضيق صور الجمود والتقليد المذهبى ، وأخرى حرفية لفظية ، تهمل مقاصد الشريعة ، وتقف عند ظواهرها ، وهم الذين سميتهم « الظاهرية الجدد » .

وهناك تيارات ، لا تتخذ غير العنف أسلوبًا ، والقوة وسيلة ، وتعلن الحرب على السلطة ، وإن أراقت ما أراقت من الدماء . وهناك تيارات تكفر المجتمع كله ، لا تكتفى بالحكام ، بل تشرك الشعوب أيضًا ؛ لأنها رضيت بهم ، والرضا بالكفر كفر ! .

وهناك اجتهادات غريبة لأفراد أو جماعات ، كأنها لا تعيش هذا العصر ، ولا تعانى مشكلاته ، ولا تتخاطب مع أهله .

فأى صورة من صور الإسلام ، نعتبرها هى التى تمثل الإسلام الصحيح؟ وما يدرينا : أى موقف يتخذه إسلام اليوم من المرأة ، أو من الشورى ، أو من الحرية ، أو من غير المسلمين مثلاً ؟؟

وأبادر فأقول : إن هذا الكلام فى جملته صحيح ، ولا بد لهذا السؤال من جواب :

والجواب أننا نقصد بالإسلام الذى ندعو إليه : الإسلام ، الذى يمثله التيار المستنير المعتدل الملتزم ، وهذا التيار هو الذى يمثل الجمهور الأكبر للصحوة الإسلامية والحركة الإسلامية ، وهو التيار المستمر والباقى ، برغم ما يعترضه من عقبات ، وما تعرض له من محن ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه « تيار الوسطية الإسلامية » .

وأما التيارات الأخرى : فتمثلها فصائل قليلة العدد ، قصيرة العمر ، وهى - فى العادة - لا تستمر طويلاً . فإن الغلو لا يطول عمره .

وهذا التيار الملتزم المعتدل المستنير ، يمكن أن يتمثل فى أصول أو مبادىء محددة ، تكون ملامحه ، وتحدد وجهته ، وتعرض مفاهيمه الأساسية فى أبرز القضايا وأهمها .

وها هى المعالم الرئيسية لهذا الإسلام ، كما نفهمه وندعو إليه ، وبعبارة أدق : كما يدعو إليه تيار « الوسطية الإسلامية » .

* * *

معالم أساسية للإسلام الذى ندعو إليه

إن الإسلام الذى ندعو إليه ، ليس مادة هلامية ، يشكلها من يشاء كما يشاء ، بل هو (مشروع حضارى متكامل) شرحه دعاته ، وبينوا معالمه ، ووضحوا قواعده ، توضيحًا يزيل كل غبش أو غموض ، فلا مجال لقول قائل : إنكم تدعوننا إلى ضبابية أو ظلامية لا يعرف أصلها ولا فصلها ، بل إن إسلامنا الذى نتبناه بيّن واضح، كالشمس فى رابعة النهار ، وأعنى به الإسلام الذى يدعو إليه تيار (الوسطية الإسلامية) الذى أتكلم باسمه .

وأنا أذكر هنا عشرين أصلاً [1] ، أراها تلقى الضوء على هذا الإسلام كما نراه ونتصوره مستمدًا من مصادره الأصيلة ، ومنابعه الصافية .

● **الإيمان بالله ولقائه ورسالاته :**

١ - إسلام يقوم أول ما يقوم على الإيمان ، الذى هو سبيل فلاح الفرد ، وسعادة المجتمع ، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

فهذا الكون - ونحن جزء منه - مخلوق ، فهو ليس أزليًا ، كما أنه ليس أبديًا ، وليس وهما بل هو حقيقة ، خلقه رب عليم حكيم ، أحسن خلقه ، وأتقن صنعه . وهو لم يُخلق باطلاً ولا عبثاً ولا لعباً ، بل خلقه لحكمة : أن يبتلى الله الناس فيه فى هذه الدار ، ليعدهم للخلود فى دار أخرى ، تجزى فيها كل نفس ما كسبت ، وتخلد فيما عملت ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[2] .

دلت على هذا الخالقَ العظيمِ الفطر السليمة ، والعقول الرشيدة ، والكون الكبير ، كما دل على ذلك إرساله تعالى رسله مبشرين منذرين ، وأيدهم بالآيات البينات .

وأعظم ما يتجلى هذا الإيمان فى عقيدة التوحيد ، الذى بعث به كل رسله ، وأكدها رسول الإسلام كل التأكيد ، وحقيقته : ألا تبغى غير الله ربا ، ولا تتخذ غير الله وليا ، ولا تبتغى غير الله حكماً .

---

(١) ذكر الإمام الشهيد حسن البنا لفهم الإسلام عشرين أصلاً ، غير هذه الأصول التى ذكرناها هنا ، لأنه كان يخاطب فئات غير التى نخاطبها نحن اليوم . فقد كان يخاطب بأصوله الجماعات الدينية القائمة فى عصره ، والتى لا تزال قائمة إلى اليوم ، فكان تركيزه على الحدود التى يفهم فى إطارها الإسلام ، ونحن نخاطب جماعات أخرى معظمها من العلمانيين والمستغربين ، والمبهورين بحضارة الغرب وفلسفاته ، ولكل مقام مقال .

(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

ولا يصح هذا الإيمان إ لا بالتصديق بكل كتاب أنزل ، وبكل نبى أرسل . وبهذا كان الإسلام مصدقاً ومتممًا ، وبانيًا لا هادمًا ، ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِه ﴾ (١) .

كما لا يتم هذا الإيمان إلا بالنزول على حكم الله ورسوله : ﴿ إِنَمَا كَانَ قَوْلَ المؤْمنِين إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِه لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (٢) ﴿وَمَا كَانَ لِمؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(٣) .

والإيمان الصادق لا يتم إلا بعمل الصالحات ، ولهذا يجب أن يصبغ الإيمان حياة الفرد ، وحياة الجماعة ، وأن تنبثق منه التشريعات والأنظمة ، وتنطلق فى ضوئه التربية والثقافة والفنون والآداب ، وتهتدى بهديه حركة الحياة كلها . ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لله رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (٤) .

فالمجتمع المسلم ليس مجتمعاً سائباً ، ولا مجتمعاً علمانياً (لا دينياً) بل هو مجتمع ملتزم بعقيدة يعيش لها ، ويموت عليها ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(٥) لهذا يرفض الردة ، ويعاقب عليها ، حفاظاً على هويته .

وهو كما يحافظ على إيمان المسلمين ، يحترم إيمان الآخرين من أهل الأديان الكتابية ، ويتركهم وما يدينون ، ولا يجادلهم إلا بالتى هى أحسن .

● تكريم الإنسان وتعريفه بواجباته وحقوقه :

٢ - إسلام يقوم على تكريم الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم ، وكرمه أعظم تكريم ، وجعله فى الأرض خليفة ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، وحمله أمانة التكاليف ، ومنحه من المواهب والقدرات الفطرية ما يعينه على أداء رسالته من العقل الذى به يفكر ، والإرادة التى بها يرجح ، والقدرة التى بها ينفذ ، وأنزل له الكتب ، وبعث له الرسل ليهدوه إلى ربه ، ويعرفوه بمنهجه الذى يرضاه ، وحذره من الشيطان الذى ليس له من سلطان عليه إلا الوسوسة والإغراء ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلا أَن دَعَوتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ (٦) .

فرض الإسلام على الإنسان واجبات يؤديها ، أولها : واجبه نحو ربه الذى خلقه فسواه فعدله ، وذلك بأن يعبده وحده لا شريك له ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنس إِلا

---

(١) البقرة : ٢٨٥ (٢) النور : ٥١ . (٣) الأحزاب : ٣٦ .
(٤) الأنعام : ١٦٢ . (٥) آل عمران : ١٠٢ . (٦) إبراهيم : ٢٢ .

لِيَعْبُدُون ﴾ [1] ، والعبادة تشمل شعائر العبادات ، وتشمل كل عمل ينفع الناس ، بل تشمل المباحات إذا كان وراءها نية صالحة .

وثانيها : واجبه نحو نفسه وأسرته وأمته والبشرية جمعاء ، فيزكى نفسه ، ويرعى أهله ، ويصلح مجتمعه ، ويجاهد لحماية أمته ، ويعمل على هداية الناس إلى الله ما استطاع .

وثالثها : واجبه نحو الكون والحياة من حوله ، بأن يعمر الأرض ، ويحيى مواتها ، ويملأها بالخير والجمال ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [2] ، وبهذا يقوم بحق الخلافة التى رشح لها ، وغبطته عليها الملائكة .

وفى مقابل هذه الواجبات قرر الإسلام له حقوقًا يجب أن ترعى : حقه فى أن يختار دينه بلا ضغط ولا إكراه ، وأن يفكر بلا حجر ولا إعتات ، وأن يعبر عن رأيه بلا خوف ولا إرهاب ، وأن يتعلم ما وسعه ذكاؤه ، وأن تتاح له فرص متكافئة مع الآخرين ، وأن يكون له حرية التنقل واختيار العمل ، واختيار الحاكم ونصحه ومحاسبته ، وحق الكفاية من العيش ، والأمن من الخوف ، بحيث يعيش آمنًا على حياته وعرضه وماله وأهله ، وهذه كلها فريضة وضرورة للإنسان فى نظر الإسلام .

● مخاطبة العقل والانتفاع به :

٣ - **إسلام يخاطب العقل** ، ويعتمد عليه فى فهم الدين ، وعمارة الدنيا ، وهو يدعو إلى العلم والتفوق فيه ، والأخذ بأحدث أساليبه ، والنزول على حكمه فى كل المجالات ، ويعتبر التفكير عبادة ، وطلب كل علم ، تحتاج إليه الأمة ، فريضة ، والتخلف عن ركب العلم المعاصر منكرًا وجريمة ، وأن التفوق فى ميادينه النظرية والتطبيقية ، المدنية والحربية ، واجب دينى ، وكل وسيلة ، تؤدى إلى هذا الواجب، فاتباعها واجب . وهو لا يرى أى تعارض بين العقل الصريح والنقل الصحيح ، فالعقل - كما قرر علماؤنا - هو أساس النقل ؛ إذ به ثبت وجود الله تعالى ، وثبتت النبوة ، كما لا يرى أى تعارض بين حقائق العلم ، وقواطع الإسلام ، فلا مجال للصراع بينهما ، كما حدث فى ظل أديان أخرى . فالدين عندنا علم ، والعلم عندنا دين .

وهو يعتز بالتراث الإسلامى ، ويستهدى به ، ويفرق فيه بين المستوى الإلهى

---

(١) الذاريات : ٥٦ . (٢) هود : ٦١ .

المعصوم الثابت ، وهو القليل ، فيلتمس فيه الهدى والنور ؛ والمستوى البشرى المتجدد- وهو الأكثر - فيستهدى به ويتخير منه ، فهو منارة تهدى ، وليس قيداً يعوق .

وهو ينفتح على تراث العلم والفكر فى العالم كله ، ويلتمس الحكمة من أى وعاء خرجت ، وينتفع بتجارب الأُمم قديماً وحديثاً ، فيأخذ منها أفضل ما فيها دون تعصب لرأى قديم ، ولا عبودية لفكر جديد ، لا ينقطع عن الماضى ، ولا ينعزل عن الحاضر ، ولا يغفل عن المستقبل . يأخذ من الديمقراطية أحسن ما انتهت إليه من الصيغ والضمانات ، لحماية حقوق الشعوب فى مواجهة الحاكمين ، ويأخذ من الاشتراكية أمثل ما انتهت إليه من الصبغ والضمانات ، لحماية حقوق الفئات المطحونة فى مواجهة المالكين والقادرين ، ويستفيد من كل الآراء والنظريات ، وإن كانت فلسفتها الأساسية مرفوضة عنده ، كفلسفة فرويد ، وماركس ، ودوركايم ، والحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها ، فهو أحق الناس بها .

● الدعوة إلى الاجتهاد والتجديد :

٤ - **إسلام يدعو إلى الاجتهاد والتجديد** ، ويقاوم الجمود ، ويؤمن بمواكبة التطور العلمى ، ومواصلة التقدم المادى ، وأن الشريعة لا تضيق بجديد ، ولا تعجز عن إيجاد حل لأى مشكلة ، وإنما العجز فى عقول المسلمين ، أو فى إرادتهم ، وأن الاجتهاد أصبح فى عصرنا فريضة وضرورة ؛ فريضة يوجبها الدين ، وضرورة يحتمها الواقع ؛ وأن بابه مفتوح لأهله بشرطه ، سواء كان اجتهاداً ترجيحياً انتقائيًا ، أم كان اجتهادًا إبداعيًا إنشائيًا ، فرديًا أم جماعيا ، جزئيا أم كليا ولا يملك أحد إغلاقه ، وقد فتحه رسول الله ﷺ ، وأن المجتهد مأجور على اجتهاده ، وإن أخطأ فيه ، وأن علينا أن نهيئ المناخ العلمى لظهور المجتهدين المرجوين ، على مستوى الإسلام ، وعلى مستوى العصر ، جامعين بين القديم النافع والجديد الصالح ، مقدرين فى اجتهادنا ظروف الناس ، وضرورات الواقع ، وتغيرات العصر ، وما عمت به البلوى ، مستفيدين من الثروة الفقهية الهائلة ، التى خلفها أئمتنا وفقهاؤنا على تعدد مدارسهم ومشاربهم ، منذ عصر الصحابة والتابعين ، فمن بعدهم من أئمة المذاهب، ومن تلاهم ، ممن اتسم بالتجديد ، أو التزم بالتقليد ، ممن له مذهب أو ليس له مذهب نتخير من كل ذلك ، ما هو أصح دليلاً ، وأهدى سبيلاً ، وأليق بتحقيق مقاصد الشرع ، ومصالح الخلق ، واضعين نصب أعيننا ما قرره علماؤنا المحققون : أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال ، وأن الشريعة إنما

شرعت لمصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وأنها قامت على حفظ الأديان والأنفس والعقول والأعراض والأنساب والأموال .

● **الدعوة إلى الوسطية والتوازن :**

٥ - **إسلام يتسم بالوسطية فى كل شىء** ، ويجعلها من خصائص أمته الأساسية : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (١) .

فهو يمثل التوازن الإيجابى فى كل المجالات ، اعتقادية وعملية ، مادية ومعنوية ، فهو يوازن بين الوحى الإلهى والعقل الإنسان ، فلكل منهما مجاله ، وهو يعمل - فى حياة الفرد - على الموازنة بين الروح والمادة ، وبين العقل والقلب ، وبين الدنيا والآخرة ، وبين الحقوق والواجبات . ومن ناحية أخرى ، يقيم الموازين القسط بين الفرد والمجتمع ، فلا يعطى الفرد من الحقوق والحريات ، حتى يتضخم ، على حساب مصلحة المجموع ، كما فعلت الرأسمالية ، ولا يعطى المجتمع من الصلاحيات والسلطات ، ما يجعله يطغى ويضغط على الفرد ، حتى يضمر وينكمش، وتذيل حوافزه ومواهبه ، كما فعلت الشيوعية والاشتراكيات المتطرفة ، فلا يقر نظرية الرأسمالية فى تضخيم الحريات الفردية ، على حساب العدل فى المجتمع ، وبخاصة الفئات الضعيفة فيه ، ولا يقر نظرية الماركسية وربائبها ، فى خنق الديمقراطية السياسية ، باسم الديمقراطية الاجتماعية ، وتحت الشعار الخادع : لا حرية لأعداء الحرية !

بل يعطى الفرد حقه ، والمجتمع حقه ، بلا طغيان ولا إخسار ، كما نظمت ذلك أحكام الشريعة وتوجيهاتها .

وبهذا يحافظ على حرية الوطن كما يرعى حرية المواطن ، وهى حرية الفكر ، لا حرية الكفر ، وحرية الضمير ، لا حرية الشهوة ، وحرية الرأى ، لا حرية التشهير ، وحرية الحقوق ، لا حرية الفسوق .

وهو يؤمن هنا بأن الناس قد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا ، فلا يجوز لأحد أن يستذل أحدًا ، ولا أن يتخذ بعض الناس بعضًا أربابًا من دون الله . فالحرية الحقيقية ثمرة التوحيد الحقيقى . ونتيجة لازمة لمعنى : « لا إله إلا الله » .

---

(١) البقرة : ١٤٣

● **الواقعية المتوازنة التى تهتم بالإنسان كله :**

٦ - **إسلام يتميز بالواقعية** ، التى هى إحدى خصائصه العامة ، فهو لا يحلّق فى أجواء المثالية المجنحة ، ولا يعامل الناس على أنهم ملائكة أولو أجنحة ، بل بشر يصيبون ويخطئون ، ويستقيمون وينحرفون ؛ وهو يعترف بضعف البشر ، ووجود الخطأ والشر ، ولهذا رغّب ورهّب ، وأوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وشرع العقوبات ، وفتح باب التوبة ، ووضع للضرورات أحكامها ، وقدر لأصحاب الأعذار أعذارهم ، فشرع الرخص والتخفيفات والاستثناءات فى أحوال شتى ؛ منها الخطأ ، والنسيان ، والإكراه ، وأجاز النزول إلى الواقع الأدنى ، عند تعذر المثل الأعلى .

ومن واقعيته : أنه يكرّم الإنسان ، ويسمو به ، ويعترف بفطرته وكرامته ، لا يهبط به إلى درك الحيوان ، ولا يعلو به إلى درجة التأليه ، يعترف بأشواقه الصاعدة وغرائزه الهابطة ، يعترف به روحًا وجسمًا ، وعقلاً وعاطفة ، ذكرًا وأنثى ، وفردًا ومجتمعًا ، ويهيئ له فرصًا للهو المباح ، والترفيه البرىء ، كما يهيئ له المناخ الإيجابى ليحيا حياة إسلامية ، بلا ضغط ولا تنازلات .

الصحة : وهو لهذا ، يحافظ على الصحة الجسمية والنفسية والعقلية للمسلم ، ويخاطب كل إنسان : إن لبدنك عليك حقًا . ومن حقه أن يطعمه إذا جاع ، وأن يريحه إذا تعب ، وأن يداويه إذا مرض ، وهو يقاوم المسكرات والمخدرات ، وسائر السموم المضرة بالأجسام والنفوس والعقول ، ويرحب بالتربية البدنية ، ويتخذها وسيلة لا غاية .

ويفرض الرعاية الصحية الشاملة ، وييسر لكل عامل حقه فى الراحة ، ولكل مريض حقه فى العلاج ، ويعلم الناس أن الله ما أنزل داء ولا أنزل له شفاء ، وهو يهتم بالوقاية أكثر من اهتمامه بالعلاج ، كما يؤكد أن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

● **تكريم المرأة وتحريرها من ظلم الجاهليات :**

٧ - **إسلام يكرّم المرأة** ، ويعتبرها إنسانًا مكلفًا تكليفًا كاملاً ، له حقوقه ، وعليه واجباته ، مجزيا على عمله فى الدنيا والآخرة ، فليست خصماً للرجل ، ولا هو عدو لها بل هو منها ، وهى منه ، يكملها وتكمله ﴿ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ (١) ،

---

(١) آل عمران : ١٩٥

وهو يرعاها بنتًا وزوجة وأمًا وعضوًا فى الأسرة ، وفى المجتمع ، ويفسح لها المجال لتشارك فى العبادة ، وفى التعلم ، وفى العمل ، وخصوصًا إذا احتاجت إليه ، أو احتاجت إليه أسرتها ، أو احتاج إليه المجتمع ، مع مراعاة ما تتميز به باعتبارها أنثى وزوجة وأمًا ، تحتاج إلى توفير ضمانات خاصة لحمايتها ورعايتها ، حتى من الزوج إن ظلم ، والأب إن فرّط ، والابن إن عقّ وأساء ، بشرط ألا يتعارض عملها مع واجبها فى رعاية البيت والولد . كما يعطيها حقها فى الإسهام مع الرجل فى أعباء الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومقاومة الشر والفساد ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (١) ، ويفسح لها مكانًا، لتشارك فى قضايا الأمة السياسية والاجتماعية والثقافية ، ناخبة ، ومرشحة لكل ما تحسنه من الأعمال - فيما عدا الولاية العامة على الدولة - فهى نصف المجتمع ، وأحد جناحيه، وإنما النساء شقائق الرجال . وهو - انطلاقًا من احترام كرامة المرأة وإنسانيتها - يأبى أن تتخذ أداة للإثارة واللهو ، والاستمتاع الرخيص ، ويوجب عليها - فى ملاقاته للرجال الأجانب عنها - الاحتشام والتصون ، والتزام الأدب والوقار ، فى اللباس والتجمل ، والمشى ، والحركة والكلام والنظر ، حتى تُعرف المرأة بجديتها ، فلا تؤذَى ، وحتى لا يطمع الذى فى قلبه مرض من الرجال .

● **الأسرة أساس المجتمع** :

٨ - **إسلام يرى أن الأسرة أساس المجتمع** ، وأن الزواج هو أساس الأسرة ، لذا يحث الإسلام عليه ، وييسر أسبابه ، ويزيل العوائق الاقتصادية من طريقه ، بالتربية وبالتشريع معًا ، ويجعل الاعتبار الأول فى الاختيار للدين والخلق ، ويرفض التقاليد الزائفة ، التى تصعّبه وتؤخره ، من غلاء المهور ، ومبالغة فى الهدايا والولائم وأحفال الأعراس ، وإسراف فى التأثيث واللباس والزينة ، ومكاثرة ، يبغضها الله ورسوله فى سائر النفقات .

وهو - إذ ييسر أسباب الحلال - يسد أبواب الحرام ، والمثيرات إليه ، من الخلاعة والتبرج ، والكلمة والصورة ، والقصة ، والدراما ، وغيرها ، ولا سيما فى أدوات الإعلام ، التى تكاد تدخل ، كل بيت ، وتصل إلى كل عين وأذن .

وهو يقيم العلاقة الأسرية بين الزوجين ، على السكون والمودة والرحمة بينهما ، وعلى تبادل الحقوق والواجبات والمعاشرة بالمعروف . مع إقرار حق الزوج فى القوامة

---

(١) التوبة : ٧٠

على الأسرة ، ويجيز الطلاق عند تعذر الوفاق ، كعملية جراحية لا بد منها، بعد إخفاق وسائل الإصلاح والتحكيم ، ويبيح الزواج بامرأة أخرى ، لمن يحتاج إليه ، ويقدر عليه ، ويثق من نفسه بالعدل ، إذا قامت الدلائل على ذلك .

ويقيم العلاقة بين الأبوين والأولاد على وجوب الرعاية الكاملة ، ماديًا وعاطفيًا وأدبيا ، من جانب الأبوة والأمومة ، ووجوب البر والإحسان من جانب البنوة .

ووجوب الرعاية من المجتمع والدولة للأمومة والطفولة ، وخصوصاً الطفولة اليتيمة والمشردة ، حتى تميز الفقه الإسلامى بباب لرعاية (اللقيط) .

ويوسع الإسلام الأسرة ، لتشمل الأرحام وأولى القربى ، فصلتهم فريضة ، وقطيعتهم كبيرة فى دين الله ، وهو يدعم روابط الأسرة بحقوق النفقة والإرث والعاقلة .

● الاهتمام بالتربية والتعليم والإعلام :

٩ - إسلام يهتم بالتربية والتعليم والتوجيه ، مثل اهتمامه بالقانون والتشريع ، بل قبل اهتمامه بالقانون والتشريع ؛ فالقوانين لا تصنع المجتمعات ، إنما تصنعها التربية المستمرة ، والتعليم الواعى ، والتوجيه العميق ، وأساس كل نهضة وتغيير ، هو بناء الإنسان ذى الفكر والضمير ، ذى الإيمان والخلق ، وهذا الإنسان الصالح هو أساس المجتمع الصالح .

ولهذا يجب توجيه أبلغ العناية إلى المؤسسات التربوية من مدرسة الحضانة إلى الجامعة ، بحيث تعلم الإيمان إلى جوار العلم ، والخُلق بجانب المهارة .

ومن أهم معالم التربية المنشودة للأجيال المسلمة : الالتزام بسلامة العقيدة من الخرافة ، ونقاء التوحيد من الشرك ، وقوة اليقين بالآخرة ، واستقامة الأخلاق ؛ من صدق القول ، وإتقان العمل ، ورعاية الأمانة والعهد ، والصدع بالحق ، ومعاداة الباطل ، والنصيحة فى الدين ، والجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله ، وتغيير المنكر باليد وباللسان وبالقلب ، حسب الاستطاعة ، ومقاومة الظلم والطغيان ، وعدم الركون إلى الظالمين ، وإن كان معهم سلطان فرعون ، ومال قارون .

كما يوجب توجيه الاهتمام إلى المؤسسات الإعلامية مقروءة ومسموعة ومرئية ، فهى التى توجه الأفكار والأذواق والميول ، وتقود الرأى العام إلى ما تتبناه ، فيجب تنقيتها مما يجافى العقيدة ، أو يلوث الفكر ، أو ينحرف بالسلوك ، وأن يكون توجهها لخدمة الأهداف الكبرى للجماعة ، من خلال برامج مدروسة منتقاة ، تبتعد عن الإثارة والتضليل ؛ محورها : الصدق فى الخبر ، والرشد فى التوجيه ،

والاعتدال فى الترفيه ، والالتزام بالقيم ، والتكامل والتنسيق بين البرامج والأجهزة والمؤسسات بعضها وبعض .

ومن أعظم هذه المؤسسات : المسجد ، فهو جامع للعبادة وجامعة للعلم ، ومنتدى للتعارف ، ومنبر للتوجيه الرشيد ، فيجب العناية به مبنى ومعنى والارتقاء برسالته التربوية والدعوية ، حتى يكون على مستوى الإسلام الذى يمثله ، والعصر الذى يعيش فيه .

● **تقوية أواصر الإخاء بين الناس :**

١٠ - **إسلام يقيم المجتمع على أواصر الإخاء والوحدة بين أبنائه** ، فلا مكان فيه لصراع الأجناس ، ولا لصراع الأديان ، ولا لصراع الطبقات ، ولا لصراع المذاهب، فالناس كلهم أخوة ، تجمع بينهم العبودية لله ، والبنوة لآدم ، « إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد » . واختلافهم واقع بمشيئة الله تعالى وحكمته ، وهو يفصل بينهم يوم القيامة ، فيما كانوا فيه يختلفون .

فهو إسلام يحترم غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى ، ويعتبرهم فى ذمة الله ، وذمة رسوله ، وذمة المسلمين ، أى فى عهدهم وضمانهم ، وهذا تعبير دينى ، يعنى لدى المسلم : أنه يتعبد الله تعالى ؛ بالمحافظة عليهم ، والدفاع عنهم ، والبر لهم ، والإقساط إليهم . فإن كان التعبير يؤذيهم ، فليترك حرصًا على شعورهم ، والعبرة بالمسميات لا الأسماء . وقد غير عمر بن الخطاب ما هو أهم من ذلك ، حين طلب إليه نصارى بنى تغلب من العرب : أنهم يأنفون من كلمة (الجزية) وأنهم يريدون أن يدفعون كل ما يطلب منهم وأكثر باسم (الصدقة) فقبل منهم عمر ذلك ، وقال : هؤلاء القوم حمقى ، رضوا المعنى ، وأبَوْا الاسم ! وهو يكفل لهم حرية الاعتقاد والتعبد ، ويحافظ على دمائهم ، وأعراضهم ، وأموالهم ، كما يحافظ على المسلمين سواء بسواء ، ويحميهم من الظلم فى الداخل ، كما يحميهم من العدوان من الخارج ، ويجعل لهم من الحقوق والحرمات فى الجملة ، ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، إلا فيما استثنى ، مما له علاقة بالتميز الدينى ، ويضع من الضمانات المعنوية والمادية والقانونية ، ما يكفل هذه الحقوق ، ويشيع فى المسلمين روح التسامح الذى لا يدخل فى نطاق القانون ، وإنما يدخل فى نطاق الأخلاق والقيم ، التى تتميز بها الأمم بعضها عن بعض ، والمسلمون لهم من ذلك النصيب الأوفى .

● **لا كهانة فى الإسلام :**

١١ - **إسلام لا يعرف الكهانة** ، ولا توجد فيه طبقة كهنوتية ؛ تحتكر الدين وتتحكم فى الضمائر ، وتغلق على الناس باب الله ، إلا عن طريقها ؛ عنها تصدر قرارات الحرمان ، أو صكوك الغفران . إنما كل الناس فى الإسلام رجال لدينهم ، ولا يحتاج المرء فيه إلى واسطة بينه وبين ربه ، فهو أقرب إليه من حبل الوريد . وعلماء الدين ليسوا إلا خبراء فى اختصاصهم ، يرجع إليهم كما يرجع إلى كل ذى علم فى علمه ، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (١) ، ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

ومن حق كل مسلم - إذا شاء - أن يصبح عالماً دينيًا ، بالدراسة والتخصص ، لا بالوراثة ، ولا باللقب ، ولا بالزى ، ولا احتكار فى هذا ولا تحجير .

فالإسلام يرفض التقسيم المستورد للناس والمؤسسات إلى ما هو دينى ، وما هو غير دينى ؛ فلا انقسام للناس ولا للتعليم ولا للقوانين ولا للمؤسسات ، فكلها يجب أن تكون فى خدمة الإسلام .

● **حكومة العدل والشورى الملزمة :**

١٢ - **إسلام يؤكد حق الأمة فى اختيار حكومتها** ، القائمة على العدل والمساواة ، والشورى الملزمة ، فلا يفرض عليها حاكم يقودها ، رغم أنفها ، بل يعتبر الحكام أجراء عندها ، أو وكلاء عنها ، لها حق مراقبتهم ومحاسبتهم ، كما عليها تقديم النصح والعون لهم ، والطاعة فى المعروف ، فمن أمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة ، ومن اعوج وانحرف ، وجب أن يقوم بالنصح والإرشاد ، وإلا فالعزل والإبعاد ، والدولة أو الحكومة بهذا - وإن كانت « إسلامية » - ليست دولة أو حكومة « دينية » ، بالمعنى الذى عرفه الغرب فى العصور الوسطى ، فهى دولة فكرة ورسالة لا دولة عنصر وأرض . . دولة تقوم على البيعة والشورى والنصيحة والعدل ، وتحتكم إلى دستور أو قانون ، لم تضعه هى ، ولا تملك تغييره ، بل هو شرع ربها ، وليس قوامها « رجال الدين » بل كل قوى أمين ، حفيظ عليم ، من الذين ، إذا مكنهم الله فى الأرض ، أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر .

هذا الإسلام يرحب بكل ما كسبته البشرية ، ووصلت إليه من خلال صراعها مع الطغاة والمستبدين ، من صيغ وصور تطبيقية ، تضمن حقوق الشعوب فى مواجهة الحكام ، وحرية الضعفاء أمام الأقوياء ، من دساتير تفصل بين السلطات ، وتحدد

---

(١) فاطر : ١٤ .

(٢) النحل : ٤٣

العلاقات ، وبرلمانات منتخبة ، وقضاء مستقل ، وصحافة حرة ، ومنابر حرة ، وأحزاب معارضة ، إلى غير ذلك ، مما يتفق مع روح الإسلام ومقاصده الكلية ، وإن لم ترد فيه نصوص مباشرة جزئية .

● المحافظة على المال وتنميته :

١٣ - إسلام يحافظ على المال ويعتبره إحدى الضروريات الخمس أو الست التى جاءت الشريعة للمحافظة عليها (الدين والنفس والعقل والنسل والمال والعرض) ، ويرى أنه قوام الناس ، وعصب الحياة وبغيره لا تتحقق عمارة الدنيا ، ولا نصرة الدين ، وهو نعمة يجب أن تشكر ، وأمانة يجب أن ترعى ، كما أنه اختبار وفتنة ، ليبلو الله الناس فيما آتاهم ، ولهذا يلزم كسبه وتنميته بالطرق المشروعة ، وأداء الحقوق الواجبة فيه ، والمحافظة عليه من السرف والترف والإهمال ، وبخاصة المال العام ، الذى له فى الإسلام حرمة عظيمة ، كحرمة مال اليتيم ، وهو يحترم الملكية الخاصة ، لكن يفرض عليها قيودًا وتكاليف شتى ، ويقاوم نزعتها إلى السيطرة والاحتكار ، ويقودها بالتشريع والتوجيه لخدمة المصلحة الاجتماعية ، كما يعمل بكل قوة للتنمية الاقتصادية العامة للأمة ، بحيث تستغل مواردها المادية ، وتجند طاقاتها البشرية ، وتتكامل فيما بينها - عربيًا وإسلاميا - لتكتفى اكتفاءً ذاتيًا ، وتنتج ما تحتاج إليه فى مجالى الزراعة والصناعة ، ولا تظل عالة على غيرها ، وخصوصاً فى قوتها الضرورى واليومى ، وسلاحها الذى تذود به عن أرضها وعرضها ومقومات وجودها ، والإسلام - هنا - يرى العمل للدنيا جزءاً من الدين ، كما يرى عمارة الأرض عبادة ، وتنمية المجتمع فريضة ، وتقوية الأمة مدنيًا وعسكريًا ، جهادًا فى سبيل الله ، والعمل عل تحررها واكتفائها الاقتصادى ، من أفضل القربات إلى الله .

وبهذا يمنح الإسلام الأمة من الحوافز والتوجيهات والمناهج والمحركات المعنوية ، ما يدفع عجلة التنمية إلى الأمام بقوة ، وما يفجر الطاقات الكامنة فى إنساننا ، الذى هو هدف التنمية ، وهو - أيضاً - صانعها .

● العناية بالفئات الضعيفة فى المجتمع :

١٤ - إسلام يعنى غاية العناية بالفئات الضعيفة فى المجتمعات من العمال والفلاحين والحرفيين وصغار الموظفين ، الذين هم عدة الإنتاج فى السلم ، والنصر فى الحرب ، كما أشار إلى ذلك الحديث الصحيح : « هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم » فهو يحفظ لهم حقوقهم بالمعروف من الأجور الكافية والضمانات الواقية ، فمن كلٍّ ، حسب طاقته ، ولكل ، حسب عمله وحاجته معًا ، كما يرعى الإسلام العاجزين عن العمل ، أو الذين لا يجدون تمام كفايتهم من أجر عملهم ،

من الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل ، ويفرض لهم حقوقًا دورية ، وغير دورية « الزكاة ، وما بعد الزكاة » فى أموال الأفراد القادرين ، وفى مال الجماعة وموارد الدولة ، ويعمل على تقريب الشقة بينهم ، وبين الأغنياء ، فيحدّ من طغيان الأغنياء، ويرفع من مستوى الفقراء ، ولا يقبل فى مجتمعه ، أن يبيت فرد شبعان ، وجاره إلى جنبه جائع ، ويرى أن الدولة مسئولة مسئولية مباشرة عن رعاية هؤلاء ، فالإمام راع ، وهو مسئول عن رعيته .

● **ترشيد الفكرة الوطنية والقومية** :

١٥ - إسلام يرى أن لا حرج على المسلم أن يحب وطنه ويعتز به ، وأن يحب قومه ويعتز بهم ، ما دام ذلك لا يتعارض مع حبه لدينه واعتزازه به ، وبهذا لا يضيق صدره بالوطنية أو القومية ، إذا لم يتضمنا محتوى يعادى الإسلام أو ينافيه كالإلحاد أو العلمانية ، أو النظرة المادية ، أو العصبية الجاهلية ، ونحوها .

ويتعاطف الإسلام تعاطفًا خاصًا مع العروبة المؤمنة ، باعتبارها وعاء الإسلام ، وباعتبار العربية لسان القرآن والسنة ، ولغة العبادة والثقافة الإسلامية ، وباعتبار العرب هم عصبة الإسلام وحملة رسالته ، وباعتبار أرض العرب معقل الإسلام وحرمه ، وفيها المساجد الثلاثة العظام ، التى لا تشد الرحال إلا إليها فى مكة والمدينة والقدس والعروبة المقصودة هى عروبة اللسان والثقافة ، لا عروبة العرق والعنصر، فمن تكلم بالعربية فهو عربى .

فالإسلام بهذا ، يبنى ولا يهدم ، ويوحد ولا يفرق ، ويقوى ولا يضعف ، يدعو إلى وحدة الوطن وتماسكه ، فوحدة العرب ، فوحدة الأمة الإسلامية ، سعيًا إلى وحدة الإنسانية ، وتضامنها فى ظل مبادئ أخلاقية مشتركة .

● **الدعوة بالحكمة والحوار بالحسنى** :

١٦ - إسلام يقابل الفكرة بالفكرة ، والشبهة بالحجة ، فلا إكراه فى الدين ، ولا إجبار فى الفكر ، ولا عنف فى الدعوة ، فهو يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويحاور المخالفين بالتى هى أحسن ، يرفض العنف منهجًا ، والإرهاب وسيلة ، سواء وقع من الحاكمين أم من المحكومين ، ويؤمن بالحوار الهادف البناء ، الذى يتيح لكل طرف أن يعرب عن نفسه بوضوح ، مع الالتزام بالموضوعية وأدب الخطاب ، الذى أشار إليه القرآن بقوله : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (١) ،

---

(١) النحل : ١٢٥ .

﴿وَلا تَجادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (١) ، فلو كانت هناك طريقتان للحوار إحداهما حسنة ، والأخرى أحسن منها وأجود ، فالمسلم مأمور أن يحاور بالتى هى أحسن . ومن ذلك : التركيز على نقاط الاتفاق والجوامع المشتركة ، لا نقاط التمايز والاختلاف ، تقربا للآخرين ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِد ﴾ (٢) .

● **شرعية التعددية الدينية والسياسية :**

١٧ - **إسلام يؤمن بأن الله خلق الناس مختلفين** ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إلا مَن رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(٣) ، أى للاختلاف خلقهم ، لأن الاختلاف ثمرة إعطاء العقل والإرادة ، ولهذا يقدر الرأى الآخر ، سواء كان فى فقه الدين ، أو فى أوضاع السياسة ، وأن الاختلاف رحمة وخير ، إذا نشأ عن تعدد الرؤى والاجتهادات ، وأن تعدد الأحزاب فى النظام الإسلامى : أمر مشروع فى إطار أصول الإسلام وأحكامه القطعية ، وأن تعدد الأحزاب فى السياسة ، أشبه بتعدد المذاهب فى الفقه ، وكذلك تعدد الجماعات والحركات العاملة للإسلام ، ما دام تعددها تعدد تنوع وتخصص ، لا تعدد تضاد وتناقض ، وتعدد تكامل وتعاون ، لا تعدد تنافر وتشاحن ، وما دامت تقف صفًا واحدًا ، فى القضايا المصيرية ، متناسية خلافاتها الجزئية ، وما دام محورها جميعًا للقرآن والسنة ، وهدفها نصرة الإسلام ، عقيدة وشريعة وأخلاقًا ، وشعارها : نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضًا ، فيما اختلفنا فيه .

● **بناء حضارة جديدة متميزة :**

١٨ - **إسلام لا يكتفى بالتغنى بحضارته الزاهرة بالأمس** ، ولكنه يعمل على إبداع حضارة إسلامية معاصرة ، تأخذ من حضارة اليوم أفضل ما عندها ، من عناصر العلم والتكنولوجيا وحسن الإدارة والتنظيم ، وتحتفظ هى بأصالتها وخصائصها ؛ فهى حضارة ، تتصل فيها الأرض بالسماء ، وترتبط فيها القيم الربانية بالمعانى الإنسانية ، وتتجلى فيها أصالة الإسلام ، وروح العصر ، ويجتمع فيها العلم والإيمان ، ويلتقى فيها الحق والقوة ، ويتوازن فيها الإبداع المادى ، والسمو الأخلاقى، ويتآخى فيها نور العقل ، ونور الوحى .

---

(١) العنكبوت : ٤٦ (٢) العنكبوت : ٤٦ . (٣) هود : ١٨ ، ١٩

حضارة تبرز فيها مقومات الإسلام وخصائصه ، وتتجسد فيها أهدافه ومناهجه فى بناء الفرد ، وفى تكوين الأسرة ، وفى تشييد المجتمع ، وفى إقامة الدولة ، وفى توجيه الإنسانية إلى التى هى أقوم .

حضارة متميزة عن حضارة المعسكر الشرقى المادية والإلحادية ، وعن حضارة المعسكر الغربى النفعية العلمانية ، حضارة لا تنتمى إلى يمين ولا يسار ، بل تنتمى إلى الإسلام وحده ؛ منه تستمدّ ، وعليه تعتمد ، وإليه تهدف ، وبه تتحرك وتنطلق، وفيه تبرز وتتفوق .

وهى - مع تميزها - تؤمن بالتفاعل بين الثقافات ، والحوار بين الحضارات ، والتعارف بين الأمم ، والإخاء بين بنى الإنسان حيثما كانوا ، ولكنها تأبى أن تذوب فى غيرها ، وأن تفقد أصالتها وتميزها ، لهذا ترفض كل أنواع الغزو الثقافى ، والاستلاب الحضارى ، والتسلط الأجنبى ، وتقاوم الأساليب الملتوية ، التى يدخل بها غزاة اليوم ، متنكرين فى ثياب الإنسان ، وهم يخفون تحتها أنياب السباع ، وسم الأفاعى ، وروح الشيطان !

● **إقامة حياة إسلامية متكاملة :**

١٩ - إسلام لا يجعل أكبر همه التطبيق الظاهرى للجانب القانونى فى الشريعة ، وبخاصة جانب العقوبات فيه ، من الحدود والقصاص ، وإن كانت جزءًا ، لا يجوز تعطيله من أحكام الشريعة .

ولكن معركته الأولى ، ومهمته الكبرى ، السعى الحثيث لإقامة حياة إسلامية حقيقية ، لا شكلية ، حياة تعمل على إصلاح ما بأنفس الناس ، حتى يصلح الله ما بهم ، فى ظلها يُبنَى الإنسان المؤمن ، والأسرة المتماسكة ، والمجتمع المترابط ، والدولة العادلة ، التى تتصف بالقوة والأمانة . . حياة إسلامية متكاملة ، توجهها عقيدة الإسلام ، وتحكمها شريعة الإسلام ، وتسودها مفاهيم الإسلام ، وتضبطها أخلاق الإسلام ، وتجمِّلها آداب الإسلام .

حياة مجتمع متكافل متماسك ، كالبنيان يشد بعضها بعضًا ، لا يجوع فيه فرد ، وجاره إلى جنبه شبعان ، يتوافر فيها العلم النافع لكل جاهل ، والعمل المناسب لكل عاطل ، والأجر العادل لكل عامل ، والغذاء الكافى لكل جائع ، والعلاج الناجع لكل مريض ، والمسكن الصحى لكل مواطن ، والكفاية التامة لكل محتاج، والرعاية المادية والاجتماعية لكل عاجز ، وبخاصة الأطفال والشيوخ والأرامل والمعُوقون . كما تتوافر فى هذه الحياة ، القوةُ على كل صعيد : القوة فى الفكر ، والقوة فى الروح ، والقوة فى البدن ، والقوة فى الخلق ، والقوة فى الاقتصاد ،

والقوة فى السلاح والإعداد ، بجوار قوة الوحدة ، والتماسك ، وأساس ذلك كله، قوة الإيمان .

● توحيد الأمة للقيام برسالتها وتحرير أرضها :

٢٠ - إسلام يرى أن المسلمين - حيثما كانوا - أمة واحدة ، يسعى بذمتهم أناهم ، وهم يد على من سواهم ، وأنهم أخوة ، جمعتهم العقيدة الواحدة ، والقبلة الواحدة، والإيمان بكتاب واحد ، ورسول واحد ، وشريعة واحدة ، وأن عليهم أن يزيلوا كل العوامل المفرقة لجماعتهم ، من الخضوع للعصبيات العنصرية والإقليمية ، ومن التبعية للمناهج والأنظمة المستوردة : يمينية أو يسارية ، ومن الارتماء فى أحضان الولاءات المعادية لأمتنا : غربية أو شرقية ، ومن اتباع الأهواء والأنانيات الحاكمة ، التى تدوس مصالح الأمة الكبيرة ، فى سبيل مطامعها الصغيرة ، ومكاسبها القريبة .

كما أن عليهم أن ينتقلوا بالتضامن الإسلامى القائم ، من مرحلة الكلام إلى مرحلة العمل ، وأن يشدوا أزره ، ويوسعوا نطاقه ، حتى يصل إلى شكل سياسى من أشكال الاتحاد أو التكتل فى عالمنا المعاصر ، الذى رأينا فيه التكتلات الاقتصادية والسياسية الكبرى ، فى أوروبا وأمريكا وغيرها . والذى لا يعيش فيه الصغير ، إلا فى حماية الكبير ، ولا تنجح فيه إلا الدول الكبرى ، وأمتنا جديرة أن تكُون كتلة كبرى، إذا استجابت لنداء ربها ، ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾(١) .

وعلى المسلمين متضامنين ، أن يعملوا على تحرير « الأرض الإسلامية » من غاصبيها ، على أن تبدأ كل جماعة بتحرير وطنها الخاص ، يعاونهم المسلمون فى كل مكان ، وبخاصة جيرانهم وأقرب الناس لهم ، حسب حاجتهم العسكرية ، والاقتصادية ، والبشرية ، وعملهم فى هذا من أفضل الجهاد فى سبيل الله .

ولفلسطين - خاصة - مكان فى جهاد المسلمين اليوم ، فهى أرض النبوات ، ومسرى النبى ﷺ ، وبلد المسجد الأقصى ، وهى قضية كل مسلم ، حتى تتحرر أرضها السليبة ، ويستعيد شعبها حقه ، ويقيم دولته المستقلة فى أرضه .

وهو - مع هذا - لا يجعل من المسلمين أمة عنصرية متعصبة ، مغلقة على ذاتها، بل هى أمة منفتحة ﴿ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (٢) فهى تعمل لإسعاد الناس ، ونفع الناس ، وهداية الناس ، داعية الجميع أن يتعارفوا ولا يتناكروا ، وأن يتفاضلوا بالعلم النافع والعمل الصالح ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٣) .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ . (٢) آل عمران : ١١٠ . (٣) الحجرات : ١٣ .

مفهوم العلمانية

ذلكم هو مفهوم الإسلام ، وتلك هى معالمه الأساسية ، كما يفهمها ، ويدعو إليها التيار الإسلامى ، المتميز بالاستنارة والاعتدال والالتزام ، فما مفهوم «العلمانية » ؟

« العلمانية » [1] ترجمة غير دقيقة ، بل غير صحيحة لكلمة « Secularism » فى الإنجليزية ، أو « Secularite » أو « Laique » بالفرنسية ، وهى كلمة لا صلة لها بلفظ « العلم » ومشتقاته ، على الإطلاق .

فالعلم فى الإنجليزية والفرنسية ، يعبر عنه بكلمة « Science » ؛ والمذهب العلمى ، نطلق عليه كلمة « Scientism » ، والنسبة إلى العلم هى « Scientific» أو « Scientifique » فى الفرنسية .

ثم إن زيادة الألف والنون ، غير قياسية فى اللغة العربية ، أى فى الاسم المنسوب ، إنما جاءت سماعًا مثل « ربانى » نسبة إلى « رب » ، ثم كثرت فى كلام المتأخرين ؛ كقولهم : « روحانى ، نفسانى ، ونورانى . . . » ، واستعملها المحدثون فى عبارات ؛ مثل « عقلانى » ، و« شخصانى » ؛ ومثلها « علمانى » .

والترجمة الصحيحة للكلمة هى « اللادينية » أو « الدنيوية » ، لا بمعنى ما يقابل الأخروية فحسب ، بل بمعنى أخص ، وهو ما لا صلة له بالدين ، أو ما كانت علاقته بالدين ، علاقة تضاد .

وإنما ترجمت الكلمة الأجنبية بهذا اللفظ « العلمانية » ؛ لأن الذين تولوا الترجمة ، لم يفهموا من كلمتى « الدين » و« العلم » إلا ما يفهمه الغربى المسيحى منها . والدين والعلم فى مفهوم الإنسان الغربى ، متضادان متعارضان ، فما يكون

---

(١) بعضهم ينطقها بفتح العين ، نسبة إلى « العالم » ، وشاع ذلك فى عدد من المعاجم ، حيث أخذ بعضها عن بعض . ولو صح ذلك لقيل : « العالمانية » . وآخرون ينطقونها بكسر عينها - وأنا منهم - نسبة إلى « العلم » ، وهو خطأ من المترجمين ، ذكرت سببه بعد سطور.

دينيًا لا يكون علميًا ، وما يكون علميًا لا يكون دينيًا ، فالعلم والعقل ، يقعان فى مقابل الدين ، والعِلمانية والعقلانية ، فى الصف المضاد للدين .

وتتضح الترجمة الصحيحة من التعريف ، الذى تورده المعاجم ، ودوائر المعارف الأجنبية للكلمة :

تقول دائرة المعارف البريطانية مادة « Secularism » : « وهى حركة اجتماعية ، تهدف إلى صرف الناس ، وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة ، إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها ؛ وذلك أنه كان لدى الناس فى العصور الوسطى ، رغبة شديدة فى العزوف عن الدنيا ، والتأمل فى الله واليوم الآخر ، وفى مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ « Secularism » ، تعرض نفسها ، من خلال تنمية النزعة الإنسانية ، حيث بدأ الناس فى عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبشرية ، وبإمكانية تحقيق مطامحهم فى هذه الدنيا القريبة .

وظل الاتجاه إلى الـ « Secularism » يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله ، باعتبارها حركة مضادة للدين ، ومضادة للمسيحية .

ويقول قاموس « العالم الجديد » لوبستر ، شرحًا للمادة نفسها :

١ - الروح الدنيوية ، أو الاتجاهات الدنيوية ، ونحو ذلك على الخصوص : نظام من المبادىء والتطبيقات « practices » يرفض أى شكل من أشكال الإيمان والعبادة .

٢- الاعتقاد بأن الدين والشئون الكنسية ، لا دخل لها فى شئون الدولة ، وخاصة التربية العامة .

ويقول « معجم أكسفورد » شرحًا لكلمة « Secular » :

١ - دنيوى ، أو مادى ، ليس دينيًا ولا روحيًا ؛ مثل التربية اللادينية ، الفن أو الموسيقى اللادينية ، السلطة اللادينية ، الحكومة المناقضة للكنيسة .

٢ - الرأى الذى يقول : إنه لا ينبغى أن يكون الدين أساسًا للأخلاق والتربية .

ويقول « المعجم الدولى الثالث الجديد » مادة : « Secularism » :

« اتجاه فى الحياة أو فى أى شأن خاص ، يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية ، يجب أن لا تتدخل فى الحكومة ، أو استبعاد هذه الاعتبارات ، استبعاداً مقصوداً ، فهى تعنى مثلاً « السياسة اللادينية البحتة فى الحكومة » . « وهى نظام اجتماعى فى الأخلاق ، مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية ، على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعى ، دون النظر إلى الدين » .

ويقول المستشرق « أربرى » فى كتابه « الدين فى الشرق الأوسط » عن الكلمة نفسها :

« إن المادية العلمية والإنسانية والمذهب الطبيعى والوضعية ، كلها أشكال للادينية ، واللادينية صفة مميزة لأوروبا وأمريكا ، ومع أن مظاهرها موجودة فى الشرق الأوسط ، فإنها لم تتخذ أى صيغة فلسفية أو أدبية محددة ، والنموذج الرئيسى لها ، هو فصل الدين عن الدولة فى الجمهورية التركية » [1] .

* * *

(١) هذه النقول من كتاب « العلمانية » ، وهو رسالة ماجستير من جامعة « أم القرى » ، لسفر بن عبد الرحمن الحوالى .

العلمانية بين الغرب المسيحى والشرق المسلم

العِلمانية - كما ذكرنا - كلمة حديثة الاستعمال فى لغتنا العربية ، شأنها شأن كثير من الكلمات ، التى أصبحت مصطلحات أو لها قوة المصطلحات فى عصرنا ، و« الياء » المشددة فيها للنسب ، والألف والنون زائدتان .

وهناك من ينطقونها بكسر العين « العِلْمانية » ، نسبة إلى « العِلْم » بكسر ، فسكون وهذا هو الأشهر ، ومن ينطقونها بالفتح « العَلْمانية » ، نسبة إلى « العَلَمْ » بفتح ، فسكون ، بمعنى « العالَم » ، أى الدنيا ، وعليه جرى « المعجم الوسيط » ، الذى أصدره مجمع اللغة العربية .

والكلمة - على كل حال كسرت عينها أو فتحت - مترجمة عن اللغات الأوربية ، كما رأينا . وكان يمكن أن تترجم بلفظة « لا دينية » ؛ لأن معنى الكلمة الأجنبية ما ليس بدينى ، وكل ما ليس بدينى ، هو لا دينى ، ولكن اختيرت كلمة «عِلمانى » أو « مدنى » ؛ لأنها أقل إثارة من كلمة « لا دينى » .

وكما أن لفظ الكلمة دخيل على معاجمنا العربية ، فإن معناها ومدلولها ، سواء أكانت بكسر العين أم بفتحها ، ما يقابل « الدين » . فالعلمانى ما ليس بدينى ، ومقابله الدينى ، أو الكهنوتى ، وكأن مدلول « العلمانية » ، المتفق عليه يعنى : عزل الدين عن الدولة وحياة المجتمع ، وإبقاءه حبيسًا فى ضمير الفرد ، لا يتجاوز العلاقة الخاصة بينه وبين ربه ، فإن سمح له بالتعبير عن نفسه ، ففى الشعائر التعبدية ، والمراسم المتعلقة بالزواج والوفاة ، ونحوها .

وهذا المعنى غير معروف فى تراثنا الإسلامى ، فتقسيم شئون الحياة إلى ما هو دينى ، وما هو غير دينى ، تقسيم غير إسلامى ، بل هو تقسيم مستورد ، مأخوذ من الغرب النصرانى . وما نراه اليوم فى مجتمعاتنا العربية والإسلامية من تقسيمات للحياة ، وللناس ، وللمؤسسات ، إلى دينى ، وغير دينى ، ليس من الإسلام فى شىء .

لم يكن فى الإسلام - كما فى عصورنا الأخيرة إلى اليوم - تعليم دينى ، وتعليم غير دينى ، ولم يكن فى الإسلام أناس يسمون رجال الدين ، وآخرون يسمون رجال العلم أو السياسة أو الدنيا ، ولم يعرف الإسلام سلطتين : إحداهما دينية ، والأخرى زمنية أو دنيوية ، ولم يعرف فى تراث الإسلام دين لا سياسة فيه ، ولا سياسة لا دين لها .

لقد كان الدين ممتزجًا بالحياة كلها ، امتزاج الروح بالجسم ، فلا يوجد شىء منفصل اسمه الروح ، ولا شىء منفصل اسمه الجسم ، وكذلك كان الدين والعلم ، أو الدين والدنيا ، أو الدين والدولة فى الإسلام .

إن العلمانية « بضاعة غربية » لم تنبت فى أرضنا ، ولا تستقيم مع عقائدنا ومسلماتنا الفكرية .

* * *

مبررات ظهور العِلمانية فى الغرب المسيحى

لقد كان لظهور العلمانية فى الغرب مبرراتها الدينية ، والفكرية ، والنفسية ، والتاريخية ، والواقعية . وهى مبررات خاصة بالعالم الغربى ، لا يجوز للعالم الإسلامى أن يقلده فيها :

(أ) المسيحية تقبل قسمة الحياة بين الله وبين قيصر :

إن المسيحية - نفسها - تحتوى من النصوص ما يؤيد فكرة العِلمانية ، أى الفصل بين الدين والدولة ، أو بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية .

أجل ، تعترف المسيحية بهذه الثنائية للحياة ، بحيث تقسمها قسمين :

أحدهما : لقيصر وهو الجانب ، الذى يخضع للسلطة الزمنية ، سلطة الدولة .
والثانى : لله ، وهو الجانب ، الذى يخضع للسلطة الروحية ، سلطة الكنيسة .

وهذا واضح فى قول المسيح (عليه السلام) ، كما يرويه الإنجيل : « أعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » !

ويسند هذا من تاريخ الفكر الغربى ، أنه لم يعرف الله ، الذى نعرفه نحن المسلمين ، محيطًا بكل شىء ، مدبرًا لكل أمر ، لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عن علمه ذرة ، فى السموات ولا فى الأرض ، وسع كل شىء ، رحمة وعلمًا ، وأحصى كل شىء عددًا ، وجعل لكل شىء قدرًا ، بعث الرسل مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكموا بين الناس ، فيما اختلفوا فيه .

إنما إله الفكر الغربى إله آخر ، مثل إله « أرسطو » ، الذى لا يعلم شيئًا غير ذاته ، ولا يدرى عما فى الكون شيئًا ، ولا يدبر فيه أمرًا ، ولا يحرك ساكنًا ، فهو - كما قال مؤرخ الحضارة والفلسفة ، « ول . ديورانت » : إله مسكين ، أشبه بملك الإنجليز ، يملك ولا يحكم !

أما الإسلام ، فهو لا يعرف هذا الإله المسكين المعزول عن الكون والإنسان ، ولا يقبل الثنائية ، التى عرفها الفكر المسيحى والفكر الغربى ، الذى يشطر الإنسان ،

ويقسم الحياة بين الله تعالى وبين قيصر . فليس قيصر نداً لله ، ينازعه فى ملكه ، بل هو عبد الله ، يخضع لحكمه ، ويدين لأمره ونهيه ، كما يدين كل العباد .

إن عقيدة التوحيد الإسلامية ترفض الشرك فى العبودية لله ، أو الشرك فى الولاء له ، أو الشرك فى الطاعة لحكمه ، فالمسلم لا يبغى غير الله ربًا ، ولا يتخذ غير الله وليًا ، ولا يبتغى غير الله حكمًا ، كما وضحت ذلك سورة التوحيد . . سورة الأنعام ، وإنما يجب أن يكون المسلم كله لله ، وحياته كلها لله ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

(ب) المسيحية ليس فيها تشريع لشئون الحياة :

ومن ناحية أخرى ، لا تملك المسيحية تشريعًا مفصلاً لشئون الحياة ، يضبط معاملاتها ، وينظم علاقاتها ، ويضع الأصول والموازين القسط لتصرفاتها . إنما هى روحانيات وأخلاقيات ، تضمنتها مواعظ الإنجيل ، وكلمات المسيح فيه . على خلاف الإسلام ، الذى جاء عقيدة وشريعة ، ووضع الأصول لحياة الإنسان من المهد إلى اللحد . ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) .

ولهذا شمل التشريع الإسلامى الحلال والحرام فى حياة الفرد ، كما نظم الحقوق والواجبات فى دائرة الأسرة ، ونظم شئون المبادلات والمعاملات فى المجتمع بين الناس بعضهم وبعض ، كما عنى بشئون الإدارة والمال والسياسة الشرعية ، وكل ما يتعلق بحقوق الراعى والرعية ، وكذلك بالعلاقات الدولية بين الأمة الإسلامية ، وغيرها من الأمم مسالمين ومحاربين .

وهذا ما تضمنه « الفقه الإسلامى » ، الذى يضم فى جنباته ، كل ما يتعلق بحياة الفرد المسلم والمجتمع المسلم ، من كتاب « الطهارة » إلى كتاب « الجهاد » ، ومن آداب الأكل والشرب ، إلى بناء الدولة .

أما المسيحى ، فليس عنده مثل هذا التشريع ، يرجع إليه ، ويحكم به ، أو يحتكم إليه .

---

(١) الأنعام : ١٦٢ .

(٢) النحل : ٨٩ .

فالمسيحى ، إذا حكمه قانون مدنى وضعى ، لا ينزعج كثيرًا ولا قليلاً ؛ لأنه لا يعطل قانونًا فرضه عليه دينه ، ولا يشعر بالتناقض بين عقيدته وواقعه ، كما يشعر به المسلم ، الذى يوجب عليه إيمانه بالله ورسوله الاحتكام إليهما فيما شرعا ، والسمع والطاعة لما أمرا به أو نهيا عنه ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١) .

(جـ) ليس للإسلام سلطة دينية بابوية :

على أن العلمانية ، إذا فصلت دين المسيحى عن دولته ، أو دولته عن دينه ، لا يضيع دينه ، ولا يزول سلطاته ؛ لأن لدينه سلطة بالفعل قائمة ، لها قوتها وخطرها ومالها ورجالها .

فهناك سلطتان بالفعل فى المسيحية : السلطة الدينية ، ويمثلها البابا ، ورجال «الإكليروس » . والسلطة الدنيوية ، ويمثلها الملك أو رئيس الجمهورية ، ورجال حكومته ، وأعوان سلطته .

فإذا انفصلت الدولة عن الدين هناك ، بقى الدين قائمًا ، فى ظل سلطته القوية الغنية المتمكنة ، وبقيت جيوشها « من الرهبان والراهبات والمبشرين والمبشرات » تعمل فى مجالاتها المختلفة ، دون أن يكون للدولة عليهم سلطان . بخلاف ما لو فعلت ذلك دولة إسلامية ، فإن النتيجة أن يبقى الدين بغير سلطان يؤيده ، ولا قوة تسنده ، حيث لا بابوية له ولا كهنوت ولا « إكليروس » .

وهذا ما حدث فى تركية المسلمة ، حين أعلن « كمال أتاتورك » علمانية الدولة ، وفصلها عن الدين ، وفصل الدين عنها . كما فصل ذلك الكاتب المغربى المسلم الأستاذ إدريس الكتانى فى كتابه « المغرب المسلم ضد اللادينية » . يقول الأستاذ : «إن التجربة التركية خلال ٣٠ عامًا ، أكثر من ٦٠ عامًا الآن » ، أقامت الدليل على أن تطبيق هذا النظام فى دولة إسلامية ، معناه القضاء على الإسلام ، كعقيدة حية مزدهرة ، ورسالة إنسانية خالدة ؛ ذلك أن تجريد الحكومة من السلطة الدينية ، ومن صبغة الدين - مع العلم بأنه لا يوجد فى المجتمع الإسلامى من يمثل هذه السلطة ،

---

(١) النور : ٥١ .

كما هو الشأن فى المسيحية - لا يعنى إلا انقراض سلطة الدين الإسلامى بالمرة . وهذا عين ما حدث فى تركيا ، فإن الكماليين عندما فصلوا دولتهم عن كل سلطة «دينية » لم يكونوا راغبين فعلاً فى وجودها ، ولذلك عمدوا إلى إنشاء إدارة صغيرة للشئون الدينية ، تشرف على المساجد ، وهى المظهر الوحيد ، الذى بقى للإسلام فى تركيا .

ومن البديهى أن هذه الإدارة لم تكن لها أية سلطة دينية ؛ لأنها فى الواقع مصلحة حكومية صرفة ، ولا يمكن - بحال من الأحوال - مقارنة نفوذ هذه الإدارة بسلطة «البابا » الروحية العظيمة فى العالم المسيحى ، وسلطاته المستقلة - تمامًا - فى إدارة الكنائس والمؤسسات والمصالح المسيحية كلها .

ومن هذا يتضح لنا أن نظام « لادينية الدولة » ، إذا كان ينسجم مع المسيحية ، ولا يقضى على سلطتها ، وإنما يحدد اختصاصاتها بالنسبة للسلطة الدنيوية ، فإن هذا النظام يتعارض - تمامًا - مع طبيعة الإسلام ، ويكون خطرًا مباشرًا عليه ، كشريعة كاملة للحياة ، ويعطل أجهزته المتحركة ، عن القيام بوظيفتها ، ويحيله بالتالى ، إلى عاطفة وجدانية نائمة فى قلوب الناس .

ولذلك فإن المغرب العربى المسلم ، لن يسمح بإعادة « التجربة التركية » فوق أراضيه الطاهرة ، ولن يصبح « لايكيا » ، إلا عندما ترغب شعوبه في التخلى عن عقيدتها وإيمانها ، والتنكر لتاريخها ورسالتها ، وهذا ما لم تسمح به للاستعمار فى الماضى ، ولن تسمح به للذين وقعوا تحت سيطرته الفكرية فى المستقبل ، بإذن الله [1] .

والواقع ، أن هذا ليس موقف المغرب العربى المسلم وحده ، بل هو موقف المشرق العربى المسلم أيضًا ، وموقف العالم الإسلامى كله ؛ لأن منطلق الجميع واحد ، والوجهة واحدة ، والخطر عليهم واحد .

(د) تاريخ الكنيسة غير تاريخ الإسلام :

إن تاريخ الكنيسة نفسه مع العلم والفكر والحرية ، تاريخ مخوف ، فقد وقفت

---

(١) « المغرب المسلم ضد اللادينية » . ص ٩٣ ، ٩٤ .

الكنيسة مع الجهل ضد العلم ، ومع الخرافة ضد الفكر ، ومع الاستبداد ضد الحرية، ومع الملوك والإقطاعيين ضد الشعب ، حتى ثارت الجماهير عليها ، وتحرورا من الحكم المباشر لرجالها ، واعتبروا عزل الدين عن الدولة ، كسبًا للشعوب ضد جلاديها .

تاريخ الكنيسة فى ذهن الإنسان الغربى المسيحى ، يعنى الاضطهاد والقتل ومحاكم التفتيش ، والمذابح المستمرة بين الطوائف المتنازعة بعضها وبعض ، وعودة السلطة إليها ، تعنى عودة هذه المآسى ، فلا غرو أن ينفر الإنسان الغربى منها ، ويقف فى سبيل حكمها وتسلطها .

لنستمع إلى شاهد من أهلها ، وهو الأستاذ « امرى ريفر » ، حيث يحلل أسباب فشل المسيحية فى كتابه « تحليل السلام » ، فيقول : « إن القتل الواسع النطاق ، والتعذيب ، والاضطهاد ، والضغوط ، التى شهدناها فى منتصف القرن العشرين ، لأدلة قاطعة على الإفلاس الكامل للمسيحية ، كوسيلة لترويض الانفعالات الإنسانية الغريزية ، ولتحويل الإنسان ، من حيوان إلى مخلوق اجتماعى معقول .

وإن بعث البربرية ، والاستعمال المطلق للقتل الجماعى ، فى العالم بأسره ، لا يمكن اعتباره كعمل لقلة من الأفراد ، الذين لا يؤمنون بالله ، أصابهم مرض التلذذ بالتعذيب « السادزم » ، أو جماعة من المتعصبين للشنتوية اليابانية .

لقد قتل ملايين من الأبرياء ، دون أن تهتز شعرة فى جسم من قتلوهم ، كما نُهب عشرات الملايين من البشر ، وجردوا مما يملكون ، ونفوا عن بلادهم ، واستعبدوا ، وقد لقوا هذا المصير على أيدى مسيحيين ، انحدروا من أصلاب أسر مسيحية ، انتسبت منذ قرون ، إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، أو إلى الكنيسة الشرقية البروتستانتية .

ولقد ارتكبت فظاعات ومآس مفزعة ، ومجردة من كل مظهر إنسانى ، لا على يد ألمان ، ويابانيين فحسب ، بل على أيدى إسبانيين ، وطليان ، وبولنديين ، ورومانيين ، ومجر ، وفرنسيين ، وصرب ، وكروات ، وروس . ولقد أغضت عن هذه القطاعات ، وأغمضت عينها ، كل المجتمعات المسيحية ، على اختلاف مذاهبها .

وليس قصدى هنا ، أن أتهم أو أصدر حكمًا على أى دين منزل « منظم » لإغضائه عن هذه الانفجارات الوحشية الشبيهة بحيوانية إنسان ما قبل التاريخ ! ولكن مجرد حصول هذه النكسة أو وقوع تلك الرجعة ، قاطع الدلالة على عدم كفاية الوسائل المسيحية ، فى تكييف الأخلاق الإنسانية ، والتأثير عليها ، وحمل الإنسان على ترك ما توحى به غرائزه ، والاهتداء بالمثل الروحية .

إنه من العبث نكران أن المسيحية عجزت عن التسرب إلى نفس الإنسان ، وعن غرس جذورها فى تلك النفس ، لقد اقتصر نجاحها - فقط - على خلق قشرة رقيقة من السلوك الخلقى ، وطبقة خفيفة من الحضارة ، لم تلبث القلاقل الاجتماعية ، التى شهدها القرن العشرون ، حتى مزقتها قطعًا » .

ثم يتابع تحليله قائلاً :

« إن ألفى سنة ، لزمن كاف ، للحكم على جدوى أية طريقة ، بصرف النظر عن المذهب ، الذى تطبقه هذه الطريقة . خلال هذه القرون العشرين ، خُيل إلى الناس أن المسيحية نجحت فى تأنيس الحيوان الراقد فى صدر الإنسان ، وفى ضبط وتقييد النزعات والخصائص الإنسانية المضرة . ولكن منذ حادت الكنائس عن رسالتها الإنسانية العالمية ، متحولة إلى « منظمات وطنية » ، مؤيدة أثر الوطنية الوثنية القبلية ، كم هى ضعيفة قبضة المسيحية على العالم الغربى ! ذلك لأنها من أجل عرض الدنيا ، قد تخلت عن تعاليمها الروحية ، مستسلمة أمام غرائز الإنسان البركانية ، التى يحطم بعضها بعضًا ، ما لم يتداركها القانون ، ويلزمها حدها .

إن ما فى المسيحية من قدسية ، وبواعث للحضارة ، هو توحدها وعالميتها ، أى تعاليمها القائلة : أن الناس خلقوا متساويين أمام الله ، وأنهم عبيد لإله واحد ، يحكمهم قانون واحد ، فتلك هى التعاليم المنطوية على الفكرة حقًا ، فى تاريخ الإنسانية .

ولكن لسوء الحظ ، المسيحية كدين منظم ، تحولت شيئًا فشيئًا ، إلى منظمة ، ذات سلطة رئاسية مطلقة ، وقد أدى هذا إلى Shism ، ثم إلى التفرق ، وبذلك انحدر القانون الواحد العالمى ، إلى ديكتاتورية من ناحية ، وإلى انتشار الفرق

والمذاهب على أوسع نطاق من ناحية أخرى . وفى هذه اللحظة ، بدأت الأوطان والقوميات الحديثة تتبلور ، كما بدأ الشعور الوطنى يسود العالم الغربى ، ويتفوق على الشعور المسيحى ، فانقسمت الكنائس المسيحية فيما بينها إلى عدد جديد من الفرق المذهبية ، وجعل كل فريق منها يؤيد المثل الأعلى الجديد الناشىء ، أعنى المثل الأعلى الوطنى .

وما لبثت المسيحية أن تشابهت بالوطنية ، وفى كل وطن اعتبرت السياسة الوطنية ، كأنها سياسة مسيحية ، لمناقشة الاتجاهات الاشتراكية والنزعات الحرة »اهـ.

هذا نموذج للمطاعن ، التى وجهت للمسيحية ، وهو غنى عن كل تعليق . فهل الإسلام كان كذلك ؟ وهل يمكن أن يؤاخذ بمثل ذلك ؟ إن وقائع التاريخ وحقائق الإسلام تجيب بالنفى ، ولكن الإسلام مع ذلك تأثر من هذه الحملة ، كما تأثر من طغيان الأفكار الوطنية والقومية عليه ، ليس فقط ؛ لأن الغربيين أصبحوا ينظرون إليه ويكتبون عنه ، باعتبار أنه نسخة من المسيحية كما يتهمونها ؛ بل لأن المسلمين الذين تعلموا فى مدارسهم « اللايكية » ، أصبحوا يعتقدون ذلك بدورهم ، وينظرون إليه بنفس المنظار [1] .

* * *

(١) المغرب المسلم ضد اللادينية ص ٧١ - ٧٣ .

فشل العلمانية فى ديار الإسلام

من أجل هذا ، لا يتصور للعلمانية أن تنجح فى بلد إسلامى ؛ لأنها مناقضة لطبيعة الإسلام ، الذى تدين به الشعوب المسلمة ، ومناقضة لمفاهيمه وسلوكه وتاريخه . . . ، ولا يوجد أى مبرر لقيامها ، كما وجد ذلك فى الغرب النصرانى .

كل ما تفعله العلمانية أنها تحاول تغيير طبيعة الأمة واتجاهها ، والأمة لا تستجيب لها ، حيث ترفض أجهزة المناعة فى كيانها ، زرع هذا الجسم الغريب فى داخلها ، وتقاومه بكل قوة ، فينشأ بين الحكم العلمانى وبين الأمة المسلمة صراع ، يظهر حينًا ويختفى أحيانًا ، ويمتد يومًا ، وينكمش يومًا آخر ، ولكنه صراع باق مستمر ؛ لأنه صراع بين الذات وبين العدوان على الذات ، وقد يكمن كمون النار فى البركان ، ولكنه لا بد يومًا أن ينفجر .

والاتجاه العلمانى - على كل حال - يعوق انطلاق الأمة بكل طاقاتها ؛ لأنه غريب عنها ، دخيل عليها ، لا يحركها من داخلها ، ولا يخاطبها باللسان ، الذى يهز كينونتها .

وأبرز بلد إسلامى حكمته العلمانية ، ونفذت فيه خططها ، وضربت بيد من حديد كل من يقاومها ، وخاضت فى ذلك بحرًا من الدم ، هو : تركيا ، بلد الخلافة الإسلامية الأخيرة ، الذى قهره « أتاتورك » على تطبيق الأنموذج الغربى فى الحياة كلها ، فى السياسة ، والاقتصاد ، والاجتماع ، والتعليم ، والثقافة ، وسلخه من تراثه ، وقيمه ، وتقاليده ، كما تسلخ الشاة من جلدها ، وأقام دستورًا لا دينيًا ، يعزل الدين عن الحياة عزلاً كاملاً ، قامت - على أساسه - قوانين مجافية للإسلام كل المجافاة ، حتى فى شئون الأسرة والأحوال الشخصية .

فهل استطاع أتاتورك وخلفاؤه من بعده ، ومعهم الدستور والقوانين ، والتعليم ، والإعلام ، والجيش والشرطة ، ومن ورائهم الغرب بكل جبروته وقوته ، أن يجتثوا جذور الأفكار الإسلامية ، والمشاعر الإسلامية ، والتطلعات الإسلامية ، والقيم الإسلامية ، من حياة الشعب التركى المسلم ؟

الواقع الذى يشهده ، كل من زار تركيا فى السنين الأخيرة ، تشهد به المساجد المزدحمة بالمصلين من كل الأجيال ، وتشهد به المدارس القرآنية ، التى تعد بالآلاف ، وتشهد به معاهد الأئمة والخطباء ، ويشهد به انتشار الكتب الإسلامية ، ويشهد به حال الأتراك ، الذين يعيشون فى ألمانيا ، وغيرها من بلاد أوربا - هذا الواقع يقول : لا ، وألف « لا » .

ولا بأس أن أنقل هنا ما كتبته جريدة « لوموند دبلوماتيك » الفرنسية ، فى ١٩٨٣/١/١٨ م ، عن تركيا بين مدنية الغرب وأصالة الإسلام ، ونقلته مجلة «الرائد » ، التى تصدر فى آخن بألمانيا ، تقول الصحيفة : بعد قرنين من الإصلاحات ، الرامية إلى طبع المجتمع التركى بالطابع الغربى ، وبعد نصف قرن من الحكم العلمانى ، هنالك حديث الآن عن انبعاث الإسلام مجددًا فى تركيا ، التى كانت من أوائل الدول الإسلامية ، التى فصلت بين السياسة والدين .

فالثورة الكمالية « كمال أتاتورك » ، كانت قد جعلت من العلمانية أساس الدولة وأساس التحديث فيها ، مما كان يعنى أن الإسلام يجب أن يخرج من الحياة العامة ، ليحتفظ فقط بحق التأثير فى ضمائر المتدينين . وهكذا تحوّل الإسلام ، الذى هو دين وسياسة قبل كل شىء ، إلى مسألة خاصة ، بجرة قلم من جانب الدولة ، التى راحت تشرف عليه .

والواقع أن فصل الإسلام عن السياسة فى بلد مسلم بصورة تامة تقريبًا ، كانت تجربة فريدة ، تقوم بها دولة علمانية قائمة على النمط الغربى . وأدى هذا الوضع إلى انتقال الإسلام من موقع السيادة والسلطة إلى موقع الظل فى الأوساط الشعبية ، وخاصة الفلاحين فى الأناضول ، وأصبح عرضة للقمع غالبًا ؛ فالمدارس القرآنية والزوايا ، اعتبرت غير شرعية ، ابتداء من عام ١٩٢٥ ، على اعتبار أنها مراكز للتخلف والتآمر الرجعى .

ولكن هل انطفأ الإسلام - مع ذلك - فى ضمائر الأتراك ، واختفى من الحياة السياسية التركية ؟ يبدو أن العكس هو الصحيح . ومع اختفاء الإسلام من عالم الطبقة الحاكمة ، تحول إلى مركز الخيارات السياسية فى البلاد . فالجمعيات

الإسلامية والتعاليم الدينية ، استمرت تمارس نفوذها وسط الجماهير فى الأناضول ، بل اكتسبت أنصارًا جددًا .

إن حماس الجماهير التركية للرموز الإسلامية ، لا يرجع - فقط - إلى نشاط جمعيتى « النقشبندى » و« القادرى » وغيرهما ، أو لكون الحكم معاديًا للدين ، بل يرجع - كذلك - إلى رفض المجتمع التركى لأى نموذج اجتماعى ، يخرج عن الإطار الثقافى الإسلامى ، وخشية هذا المجتمع من رؤية الهوية الثقافية التركية ، تذوب شيئًا فشيئًا وسط تنامى نفوذ نمط الحياة الغربية داخل تركيا . إن من الصعب - الآن - تحديد عدد أتباع الجمعيات الدينية فى تركيا ، وعدد الذين يذهبون للمدارس الإسلامية السرية ؛ لأن هذه الجمعيات والمدارس ، لا تعمل كما تعمل الأحزاب ، ولكن يمكن أخذ فكرة عن طريق نسبة الأصوات ، التى حصل عليها « حزب الخلاص الوطنى » ، الذى يتزعمه السيد « أربكان » ، الذى يقبع - الآن - فى السجن بتهمة معارضة مبادىء « العلمانية » ، ومخالفة المادة « ١٦٣ » من القانون ، التى تحرِّم الدعوة لأى ربط بين الدين والحياة الاقتصادية أو السياسية . والواقع أن حزب الخلاص بدأ مع دخول النمط البرلمانى إلى تركيا ، وقد حصل فى انتخابات ١٩٧٣ على ١١,٨ بالمائة من مجموع الأصوات ، واحتفظ بهذه النسبة - عمومًا - مع ميل للانخفاض ، حتى قيام الانقلاب العسكرى فى أيلول ١٩٨٠ م » ا هـ .

* * *

العلمانية والعلمية

انتهز بعض العلمانيين فرصة الترجمة الخاطئة لكلمة « العلمانية » ، محاولين أن يجعلوها مرادفة لـ « العلمية » ، وقالوا : إن العلمانية تعنى استخدام العلم والعقل ، موهمين بذلك - أو مصرحين - بأن الإسلام ضد العقل والعلم !

وهذه مغالطة مكشوفة ، فإن البون شاسع بين العلمية والعلمانية ، ونحن نقول : « نعم » للأولى ، و« لا » للثانية .

« العلمية » وجهة تنتسب إلى العلم ، وتحتكم إليه ، فى كل مجالات الحياة وشئونها ، مادية وأدبية ، مدنية وعسكرية ، سياسية واقتصادية ، فردية واجتماعية .

« والعلميون » من الناس ، هم الذين يتبنون هذه الوجهة ، فيحترمون ما يقرره العلم ، وينزلون على حكمه ، ويكيفون حياتهم وفقًا لمقتضاه . أما غيرهم ، فيمضون فى طريقهم ، تبعًا للأهواء والعواطف « الشخصية » أو « الحزبية » أو للافتراضات والأوهام ، أو تقليدًا لغيرهم ، دون فحص ولا اختبار .

ونريد بـ « العلم » هنا ، ما قامت عليه الأدلة القاطعة ؛ فكم من قضايا أُدخلت تحت عنوان « العلم » ، وهى ليست من العلم فى شىء .

ومن ذلك كثير من نتائج العلوم الإنسانية والاجتماعية ، التى يريد بعض دارسيها أن يُلبسوها ثوب العلم اليقينى ، وهى ليست أكثر من استنتاجات ، مبنية على مقدمات غير يقينية ، قد يُقبل بعضها ، ويُرفض بعضها ، وقد تُرفض كلها . ولا أدل على ذلك من اختلاف النتائج ، باختلاف المدارس الفكرية ، التى ينتمى إليها الباحثون ، ما بين شرق وغرب ، وما بين يمين ويسار ، يختلف كل منهما فى درجاته من يمين اليمين إلى يسار اليسار !

وما أجدر أن يطبق على هؤلاء ، الذين يدعون العلمية ، فيما ليس بعلمى ، ما قاله الله فى قوم قبلهم : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (١) .

---

(١) النجم : ٢٨ .

ونحن المسلمين أولى الناس باحترام « العلم » ، وتبنى « العلمية » فى كل أمورنا ، فالدين عندنا علم ، والعلم عندنا دين . ولم يعرف تراثنا صراعًا بين الدين والعلم ، كما عرفه الغرب ، الذى أدار رحى الحرب بينهما قرونًا ، كان من آثارها محاكم التفتيش وأهوالها ، التى يندى لها جبين التاريخ .

ومعجزة نبى الإسلام لم تكن « آية كونية » ، تخضع لها الأعناق مقهورة ، بل «آية علمية » تذعن لها العقول مقتنعة ، وهى القرآن الكريم .

ولما طلب مشركو العرب من النبى ﷺ أن تكون له آية حسية ، كما كان للأنبياء من قبله ، كان الرد الإلهى عليهم : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وحسبنا أن أول سورة نزلت فى القرآن ، بدأت بقوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ (٢) .

وثانى سورة نزلت بدأت بقوله : ﴿ ن ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (٣) .

والقرآن ينشىء « العقلية العلمية » ، التى تعتبر التفكر عبادة ، والعلم فريضة ، وترى الإنسان والتاريخ والكون كله ، مسرحًا للنظر والتأمل ﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (٤) .

﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ ﴾(٥) .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ (٦) .

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (٧) .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ (٨) .

---

(١) العنكبوت : ٥١ .
(٢) العلق : ١ .
(٣) القلم : ١ .
(٤) الذاريات : ٢٠ ، ٢١ .
(٥) الأعراف : ١٨٥ .
(٦) العنكبوت : ٢٠ .
(٧) الروم : ٩ .
(٨) الحج : ٤٦ .

العقلية ، التى لا تقبل دعوى ، بغير برهان يثبت صحتها ، وإلا فدعواه مردودة عليه ، كائنًا ما كان ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

فمن ادعى النبوة ، طولب بالبينة ﴿ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢) .

ومن دعا الناس إلى عقيدة ، قيل له : ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

ومن ادعى فى الدين شيئًا ، ينسبه إلى الله تعالى ، قيل له ولمن وافقه : ﴿ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ (٤) ﴿ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٥) .

إنها « العقلية العلمية » ، التى تطلب البرهان اليقينى فى العقليات ، وصدق التجربة فى الحسيات ، وصحة النقل فى المرويات : ﴿ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٦) .

العقلية ، التى ترفض الظن فى مقام اليقين ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنًا ، إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (٧) .

وترفض أن تتبع الهوى بدل اتباع الحق ، هوى النفس ، أو أهواء الغير ، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ ﴾ (٨) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٩) .

وترفض مبدأ تقليد الآباء ، ولو كانوا فى ضلال مبين ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٠) .

وترفض اتباع الآخرين بغير حجة ، ولو كانوا سادة القوم وكبراءهم : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ﴾ (١١) .

وحسبنا أن القرآن نوه بالعلم ، وأشاد بآثاره فى عدد من قصص الأنبياء الكرام .

---

(١) البقرة : ١١١ .
(٢) الأعراف : ١٠٦ .
(٣) يونس : ٦٨ .
(٤) الأنعام : ١٤٨ .
(٥) الأنعام : ١٤٣ .
(٦) الأحقاف : ٤ .
(٧) يونس : ٣٦
(٨) القصص : ٥٠ .
(٩) الجاثية : ١٨ .
(١٠) المائدة : ١٠٤ .
(١١) الأحزاب : ٦٧ .

فهو فى قصة آدم ، المرشح الأول لخلافة الإنسان فى الأرض ، وبه أثبت آدم تفوقه على الملائكة المقربين .

وهو فى قصة يوسف ، الذى أنقذ الله به مصر وما حولها من المجاعة الماحقة ، نتيجة التخطيط الاقتصادى الزراعى المحكم - إنتاجًا وادخارًا واستهلاكًا - لمدة خمسة عشر عامًا . وهو فى قصة سليمان ، الذى استطاع به صاحبه « الذى عنده علم من الكتاب » أن يحضر به عرش ملكة سبأ من اليمن إلى الشام ، قبل أن يرتد إليه طرفه ، وهو ما لم يستطعه « عفريت من الجن » ، فدل على أن قوة الإنسان بالعلم تفوق قوة الجن ، على ما لهم من قدرات وإمكانات .

وفى السنة نرى النبى ﷺ يحمل على الأوهام والخرافات ، التى يعتمد عليها الكهنة والعرافون فى الجو الوثنى .

كما أنكر - بشدة - الاعتماد على التمائم والأحجبة ونحوها ، دون أن يبحث عن الدواء المناسب له ، معلنًا : أن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه ، جهله من جهله .

ونرى الرسول الكريم ينزل عن رأيه الخاص ، إلى رأى الخبراء ، كما فى موقعة بدر ، ونزوله على رأى الحباب بن المنذر .

ونراه عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة إلى المدينة ، يبادر بعمل « إحصاء » للمؤمنين به ، ليعرف منه مدى « القوة الضاربة » لديه ، فقال : « أحصوا لى عدد من يلفظ بالإسلام » فأحصوا له ، فكانوا ألفًا وخمسمائة رجل ، كما رواه البخارى .

ونراه ﷺ يعتمد نتائج التجربة فى الشئون الفنية المتعلقة بشئون الدنيا ؛ من كيفيات الزراعة والصناعة والتسليح والطب ونحوها ، وفى هذا جاء الحديث الصحيح : «أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

لم تكن هذه التعاليم القرآنية والنبوية حبرًا على ورق ، فقد آتت أُكُلها ، وقامت فى ظلها حضارة شامخة البنيان ، وطيدة الأركان ، آخت بين الإيمان والعلم ، بين العقيدة والفكر ، بين الشريعة والحكمة ، ولم يصطدم فيها معقول صريح ، بمنقول

صحيح ، بل قرر علماؤها أن العقل أساس النقل ، فلو ألغينا العقل ما ثبت لنا نقل ولا وحى ، فإن الحقائق الكبرى فى الدين ، إنما ثبتت بالعقل أولاً ، قبل أن يثبت الوحى .

فبالعقل استدللنا على وجود الله تعالى ، وبالعقل استدللنا على صحة النبوة بعامة ، وبالعقل استدللنا على صدق نبوة محمد بخاصة ، وعلى أن القرآن ، الذى جاء به ، من عند الله .

والعقيدة عندنا - نحن المسلمين - تقوم على أساس البينة والبرهان ، لا على أساس التقليد للآباء ، أو الطاعة للكبراء . والدعوة فى الإسلام يجب أن تكون على بصيرة ، وليس فى الإسلام ما عرف فى أديان أُخر من مثل قولهم : اعتقد ، وأنت أعمى ! أو أغمض عينيك ، ثم اتبعنى !

ولهذا شُحن القرآن بالأدلة على توحيد الله تعالى ، وعلى صدق رسوله ، وعلى إمكان البعث ، وحكمة الجزاء فى الآخرة ، وغيرها .

والشريعة فى الإسلام قائمة على رعاية مصالح العباد ، فى المعاش والمعاد ، كما يعبر فقهاؤها ، وكما يدل على ذلك استقراء أحكامها فى العبادات والمعاملات ، وكما يؤكد ذلك تعليلات الأحكام فى القرآن والحديث .

فهى شريعة « منطقية » ، لا تفرق بين متماثلين ، ولا تسوى بين مختلفين ، ولهذا كان « القياس » أصلاً من أصولها المعتبرة لدى جمهرة الفقهاء المسلمين ، ولهذا قال أحد من آمن بالنبى ﷺ : « ما أمر بشىء ، فقال العقل : ليته نهى عنه ، ولا نهى عن شىء ، فقال العقل : ليته أمر به » .

والاتجاه « العلمى » أو « العقلانية » فى الإسلام ، أمر واضح ثابت ، اعترف به كل منصف ، ممن اطلع على شىء من تعاليم الإسلام الأصيلة ، فى مصادرها النقية ، ولو من غير المسلمين ، بل من بعض من اتخذوا موقفًا ضد الإسلام .

فهذا الكاتب الماركسى « مكسيم رودنسون » يقول فى حديثه عن « العقيدة القرآنية» [1] : « القرآن كتاب مقدس ، تحتل فيه العقلانية مكانًا ، جد كبير . فالله

---

(١) ص ١٣٤ وما بعدها ، من كتاب « الإسلام والرأسمالية » ترجمة نزيه الحكيم ، نشر دار الطليعة .

لا ينفك فيه يناقش ويقيم البراهين . بل إن أكثر ما يلفت النظر هو أن الوحى نفسه - هذه الظاهرة الأقل اتسامًا بالعقلانية فى أى دين ، الوحى الذى أنزله الله على مختلف الرسل عبر العصور ، وعلى خاتمهم محمد - يعتبره القرآن هو نفسه أداة للبرهان ؛ فهو فى مناسبات عديدة ، يكرر لنا أن الرسل قد جاءوا « بالبينات » وهو لا يألو يتحدى معارضيه ، أن يأتوا بمثله .

والقرآن ما ينفك يقدم البراهين العقلانية على القدرة الإلهية ؛ ففى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وتوالد الحيوان ، ودوران الكواكب والأفلاك ، وتنوع خيرات الحياة الحيوانية والنباتية ، تنوعًا رائع التطابق مع حاجات البشر ، آيات لأولى الألباب [آل عمران : ١٨٠] (١) .

وفعل « عقل » « بمعنى ربط الأفكار بعضها ببعض . . . حاكم البرهان العقلى » يتكرر فى القرآن حوالى خمسين مرة ، ويتكرر ثلاث عشرة مرة هذا السؤال الاستنكارى ، وكأنه لازمه : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

« والكفار أولئك الذين يرفضون الاستماع إلى دعوة محمد ، يوصفون بأنهم « قوم لا يعقلون » ؛ لأنهم قاصرون عن أى جهد عقلى ، يهز تقاليدهم الموروثة ، وهم بهذا كالجمادات والأنعام ، بل أكثر عجمة . . . ولذلك يكره الله هؤلاء الناس ، الذين لا يريدون أن يعيدوا النظر فى أسس تفكيرهم » .

« ولئن كان « يعنى الله سبحانه » يرسل الآيات « الدالة » على وجوده وإرادته ، وأهمها الآيات المنزلة على نبيه محمد ، فلكى يفهمها الناس ، ويجعلوا منها أساسًا لتفكيرهم . ونرى الله يقيم البينة الفاصلة ، ثم يختتم البرهان بقوله : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) كان الأولى الاستشهاد بآية البقرة رقم ١٦٤ ، فهى المطابقة لكلام المؤلف هنا . ويبدو من كلام المؤلف ، أنه تتبع مادة « عقل » فقط فى القرآن . ولو تتبع كلمات أخرى فى الموضوع مثل : « نظر » ، و« تفكر » ، و« فقه » ، و« علم » ، و« برهان » ، و« لب » ، ونحوها ، لخرج بشىء كثير ، وكثير جدًا .

(٢) البقرة : ٤٤ .

(٣) الروم : ٢٨ .

ويستمر الكاتب فى بيان عقلانية الإسلام ، مقارنًا هذه بما جاء فى العهدين القديم والجديد ، لليهود والمسيحيين ، إلى أن يقول : « فى مقابلة هذا ، تبدو العقلانية القرآنية صلبة ، كأنها الصخر » (١) .

ومثل هذا المناخ العقلى ، الذى صنعته آيات القرآن - كما اعترف به المفكر الماركسى وغيره - يشكل أخصب بيئة لإنتاج علمى مثمر ، قائم على استخدام أقصى الطاقات والمواهب البشرية .

وهذا كله يبين لنا طبيعة « المناخ » ، الذى هيأه الإسلام لظهور « المنهج العلمى » السليم ، الذى لا يملك باحثو الغرب أن ينكروه .

يقول العلامة رينيه ميليه : « لقد جاء المسلمون جميعًا فى البحث بجديد : مبدأ يتفرع من الدين نفسه ، هو مبدأ التأمل والبحث ، وقد مالوا إلى العلوم ، وبرعوا فيها ، وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء . وقد وجد منهم كبار الأطباء » .

يقول الدكتور فرنتورونثال : « إن أعظم نشاط فكرى قام به العرب ، يبدو لنا جليًا فى حقل المعرفة التجريبية ، ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم ، فإنهم كانوا يبدون نشاطًا واجتهادًا عجيبين ، حين يلاحظون ويمحصون ، وحين يجمعون ، ويرتبون ما تعلموه من التجربة » .

ويقول المؤرخ الفيلسوف الاجتماعى الشهير جوستاف لوبون : « إن العرب هم الذين علموا العالم ، كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » .

و« العلمية » التى ننوه بها ، لا تعنى مجرد السعى للحصول على التفوق العلمى ، وتأكيد الاهتمام بمقررات « العلوم » وتطويرها ، تأليفًا وتعليمًا وبحثًا ، فى المدارس والجامعات ، ومراكز البحث العلمى ، وتوجيه العناية إلى التطور «التكنولوجى » ، الذى ينمو ويتصاعد يومًا بعد يوم .

« العلمية » لا تقف عند هذا وحده ، وإن كان الاهتمام بكل هذا فريضة وضرورة ، والتقصير فيه منكرًا وإثمًا مبينًا فى نظر الإسلام .

---

(١) انظر فصل « العقيدة القرآنية » من كتاب « الإسلام والرأسمالية » .

إنما نعنى بـ « العلمية » - إلى جوار هذا - أن يسود « التفكير العلمى » ، وتسود «الروح العلمية » كل علاقاتنا ومواقفنا وشئون حياتنا ، بحيث ننظر إلى الأشياء والأشخاص والأعمال ، والقضايا والمواقف « نظرة علمية » ، ونصدر قراراتنا الاستراتيجية والتكنيكية ، فى الاقتصاد والسياسة والتعليم ، وغيرها بعقلية علمية ، وبروح علمية بعيدًا عن الارتجالية ، والذاتية ، والانفعالية ، والعاطفية ، والغوغائية ، والتحكمية ، والتبريرية ، التى تسود مناخنا اليوم ، وتصبغ تصرفاتنا إلى حد بعيد ، فمن سلم من أصحاب القرار من اتباع هواه الشخصى ، أو هوى فئته وحزبه ، كان أكبر همه اتباع ما يرضى أهواء الجماهير ، لا ما يحقق مصالحها ، ويؤمن مستقبلها ، فى وطنها الصغير ، ووطنها الكبير ، والأكبر .

و« للروح العلمية » دلائل ومظاهر أو سمات ، كنت أشرت إليها أو إلى أهمها فى كتابى « الحل الإسلامى » فى مجال « النقد الذاتى » للحركة الإسلامية ، يحسن بى أن أذكر بها هنا ، وأؤكدها ، فى مجال تأكيد حاجة الأمة إليها لا إلى «العلمانية » المستوردة . وفى بعض الإعادة إفادة .

وللروح العلمية سمات أبرزها :

(١) النظرة الموضوعية إلى المواقف والأشياء والأقوال ، بغض النظر عن الأشخاص ، كما قال على بن أبى طالب : « لا تعرف الحق بالرجال ، اعرف الحق ، تعرف أهله » .

(٢) احترام الاختصاصات ، كما قال القرآن : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ [١] ، ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ [٢] ، ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [٣] . فللدين أهله ، وللاقتصاد أهله ، وللعسكرية أهلها ، ولكل فن رجاله ، وخاصة فى عصرنا ، عصر التخصص الدقيق . أما الذى يعرف فى الدين والسياسة ، والعلوم والفنون ، والشئون الاقتصادية والعسكرية ، ويفتى فى كل شىء ، فهو فى الحقيقة لا يعرف شيئًا .

---

(١) النحل : ٤٣ . (٢) الفرقان : ٥٩ . (٣) فاطر : ١٤ .

(٣) القدرة على نقد الذات ، والاعتراف بالخطأ ، والاستفادة منه ، وتقويم تجارب الماضى تقويمًا عادلاً ، بعيدًا عن النظرة « المنقبية » ، التى تنظر إلى الماضى على أنه كله مناقب وأمجاد !

(٤) استخدام أحدث الأساليب ، وأقدرها على تحقيق الغاية ، والاستفادة من تجارب الغير ، حتى من الخصوم . فالحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها ، فهو أحق الناس بها .

(٥) إخضاع كل شىء - فيما عدا المسلمات الدينية والعقلية - للفحص والاختبار ، والرضا بالنتائج ، كانت للإنسان أو عليه .

(٦) عدم التعجل فى إصدار الأحكام والقرارات ، وتبنى المواقف ، إلا بعد دراسة متأنية ، مبنية على الاستقراء والإحصاء ، وبعد حوار بناء ، تظهر معه المزايا ، وتنكشف المآخذ والعيوب .

(٧) تقدير وجهات النظر الأخرى ، واحترام آراء المخالفين فى القضايا ذات الوجوه المتعددة ، فى الفقه وغيره ، ما دام لكل دليله ووجهته ، وما دامت المسألة لم يثبت فيها نص حاسم يقطع النزاع . ومن المقرر عند علمائنا : أن لا إنكار فى المسائل الاجتهادية ، إذ لا فضل لمجتهد على آخر ، ولا يمنع هذا من الحوار البناء ، والتحقيق العلمى النزيه فى ظل التسامح والحب .

* * *

العلمانية والإلحاد

إذا كان مفهوم « الإلحاد » هو إنكار وجوه الله سبحانه ، كما هو مذهب الماديين قديمًا وحديثًا ، ومنهم الشيوعيون دعاة المادية التاريخية ، فإن العِلمانية - حسب مفهومها - لا تعنى بالضرورة الإلحاد .

قد يوجد من « العِلمانيين » من يجحد وجود الله تعالى ، أو يجحد رسالاته ووحيه ، أو يجحد لقاءه وحسابه فى الآخرة ، ولكن هذا ليس من اللوازم الذاتية لفكرة العِلمانية ، كما نشأت فى الغرب ، فإن الذين نادوا بها ، لم يكونوا ملاحدة ينكرون وجود الله ، بل هم ينكرون تسلط الكنيسة على شئون العلم والحياة فحسب ، فكل ما يعنيهم هو عزل الدين - ممثلاً فى رجاله وكنيسته - عن سياسة الدولة ، وتوجيه أمورها ؛ سياسية كانت ، أو اقتصادية ، أو اجتماعية ، أو ثقافية ، أو تربوية .

ولكن يجب أن نعترف بأن ثمة فرقًا واضحًا بين الإسلام ، والمسيحية ، فى هذا الموضوع .

فالمسيحى يمكن أن يقبل العِلمانية ، حاكمًا ، أو محكومًا ، ويبقى مع هذا مسيحيًا ، غير مخدوش ولا مقهور فى عقيدته ولا شريعته .

فالعِلمانية لا تمنعه أن يذهب إلى الكنيسة يوم الأحد من كل أسبوع ، وأن يحتفل بأعياد ميلاد المسيح من كل عام ، وأن يمارس شعائره الدينية الشخصية متى شاء .

والمسيحية نفسها لا تطالبه بشىء أكثر من ذلك ، فليس فيها شريعة تلزمه الحكم بها أو الاحتكام إليها ، وتصف بالكفر والظلم والفسق من أعرض عنها .

ولم تجىء المسيحية نظامًا كاملاً للحياة ، يصبغها بصبغته ، ويقودها بتشريعاته ووصاياه ، وأوامره ونواهيه ؛ فى مختلف شئون الفرد ، والأسرة ، والمجتمع ، والدولة ، والعلاقات الدولية .

بل إن المسيحية فى إنجيلها نفسه ، كما أشرنا من قبل ، تقبل ترك شئون السياسة للحاكمين الدنيويين ، بعيداً عن توجيه الدين وهداية الله ، كما هو ظاهر المقولة ، التى ذكرها الإنجيل عن المسيح (عليه السلام) : « دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » !

فإذا نظرنا إلى العلمانية مع الإسلام وجدنا الأمر يختلف تمام الاختلاف ، ذلك لأن الإسلام جاء نظامًا كاملاً للحياة ، لا يقبل أن تشاركه أية « أيديولوجية » أخرى، فى توجيهها ، فهو الذى يحدد أهدافها ، ويضع أصول مناهجها ، ويعد بالثواب أو العقاب ، لمن عمل بها ، أو انحرف عنها .

جاء الإسلام عقيدة وشريعة ، فالعقيدة هى الأساس ، والشريعة هى المنهاج . فهو عقيدة ، تنبثق منها شريعة ، يقوم عليها مجتمع .

وهى شريعة ربانية المصدر ، منزلة فى أصولها من عند الله ، والحكم بها والاحتكام إليها ، من لوازم الإيمان ، ودلائل الالتزام بالإسلام .

ولهذا يكون المسلم ، الذى يقبل العلمانية - مهما تكن علمانية معتدلة متساهلة - فى جبهة المعارضة للإسلام ، وخصوصًا فيما يتعلق بتحكيم الشريعة ، التى جاء بها كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ .

إن هذا المسلم ، الذى يقبل العلمانية ، أو يدعو إليها - وإن لم يكن ملحدًا ، يجحد وجود الله ، وينكر الوحى ، والدار الآخرة - قد تنتهى به علمانيته إلى الكفر البواح والعياذ بالله ، إذا أنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة ؛ مثل تحريم الربا ، أو الزنى ، أو شرب الخمر ، أو فرضية الزكاة ، أو إقامة الحدود ، أو غير ذلك من القطعيات ، التى أجمعت عليها الأمة ، وثبتت بالتواتر اليقينى ، الذى لا ريب فيه.

بل إن العلمانى الذى يرفض « مبدأ » تحكيم الشريعة من الأساس ، ليس له من الإسلام إلا اسمه ، وهو مرتد عن الإسلام بيقين ، يجب أن يستتاب ، وتُزاح عنه الشبهة ، وتُقام عليه الحجة ، وإلا حكم القضاء عليه بالردة ، وجُرد من انتمائه إلى الإسلام ، أو سحبت منه « الجنسية الإسلامية » ، وفُرق بينه وبين زوجه وولده ، وجرت عليه أحكام المرتدين المارقين ، فى الحياة ، وبعد الوفاة .

* * *